كسرة ذل

زهير أبو سعد

عنــوان الكتــاب: كسرة ذل
اســـم المؤلـــف: زهير أبو سعد
رقـــم الإيـــداع:
التــرقيم الـــدولي:
المـــدير العـــام: محمد سلامة
تــصميم الغــلاف: أحمد البهنساوي
التنسيق الـداخلي: محمد بدرالوجود

الطبعة الأولى
1438هـ - 2017م

© حقـوق الطبـع والنـشر لهـذا المـصنف محفوظـة، للناشـر الـدكتور/ محمـد سـلامة، ولا يجـوز بـأي صـورة إعـادة النـشر الكلي أو الجزئي، أو نسخه أو تصويره أو ترجمته أو الاقتباس منه، أو تحويله رقميًا أو إتاحته عبر شبكة الإنترنت، إلا بإذن كتابي مسبق من الناشر.

الإهداء

إهداء

إلى أبي

إلى مُعتقلي وطن

إلى رِفاق الدرب و النِّضال

إلى جُمهورية النمسا ، و عَاصمِة الحُرِية فيينَا

إلى الحُب و السَلام و الكَرامَة و الديمقراطية

مُقَدّمة

هَـذا اليَـوم الخَـامِس مِـن الـشَـهرِ العَاشِـر مـن عَام 2008 مِيلادي

هُنَا دِمشق،

آسِـف لا أعـرِف كَم السَاعة، ولَكِن أعـرِفُ أينَ المَكَان، لا أعـرِفُ إن كنُتُ في النَهَارِ أو في اللِيل، ولَكَن أعلمُ بِأن لا بُدَ للظُلِمِ أنْ يَنجَلي..

عَشرةِ أشهُرٍ وخَمسَة أيَام على حَسَبِ التَوقِيتِ المَحلي للظَلامِ، إنهُ التَقدِير العَبَثِي في خَلوَة اللا مُبَـالاة، كَثِير مِـنَ اللحَظَـاتِ تُفقِـدكَ الـسَيطَرة على دَقـائِقِ الأُمُـور لَـيسَ لأنـكَ مُمتلئ بِرفَاهِيـةِ الهُمُومِ! .. ،

كَلا..

بل لأنَكَ أضحَيتَ عِبئاً على الهُمومِ بَحدِ ذَاتِهَا، ورَقماً في وَطن لا يَعتِرفُ بِكَ سِوى عَبداً يُسَاقُ إلى الاحتِقارِ والإذلالِ . قَالوا..

و يا ليتَهمُ أشبَعُونَا بِصمتِهم، بِأنَ سُورِيا مَهدَ الحضَاراتِ وأرضِ الرُسُلِ وبِلاد اليَاسَمين ومَلاذِ الصَالحِينَ والقِدِيسِين، أشبَعُونَا كَذِباً،

تَخَيل يا مَن تَنعُمُ بِحُرِيةِ الضوءِ، أنَنَي أتحَدَثُ مَعكَ أو رُبمَا مَعَ الجُدرانِ فَأنَا لا أعلَم مَع مَن أتَحدث، فَأنَا لم أتَحدث مَع إنسَان في هَذا القَبر الانفِرادِي منذُ عَشرةِ أشهُر، لَقد طُلبتُ إلى المُحقِقِ الِذي لم أرَهُ فَورَ دُخُولي بِبِضعِ سَاعَاتٍ مِن بَعدِ جُرعَاتٍ مِنَ الضَربِ بِكُلِ وسَائِلِ التَعذِيبِ، وَقَفتُ أمَامَهُ مُكبَلاً بالسَلاسِلِ كَكَلبِ الحِرَاسةِ، مَعصُوبِ العَينِين

بِلاصِقٍ أسُودٍ عَرِيض، مُجرَد مِن كَافَةِ ثِيابِي الخَارِجِيـة والدَاخِلِيـة، عَـارٍ أمَـامَ الـوَطَن، لا شَيءَ يُـدَثِرُ عَـورَاتِي سِـوى بَـردَ المكَان والـدِمَاءَ المُتَدَفِقة مِن الجِراح المُتَرامِية على مَسَاحَاتِ الجِلدِ المُهَمش، عَارٍ بِلا كَرامَة أرتَجِفُ ألَماً بَعدَ أن حَطمُوا عِظَامِي بِآلاتِ التَعذِيبِ، لا أعَلم مَا القَاسِم المُشتَرك بِينَهُم وبِينَ الرَقم خَمسَة..!

خَمـسَة عُقـودٍ مِـنَ الظُلـم، خَمـسونَ سَـاعة لارتِكَابِ أكبَرُ مَجزَرَة شَـهِدَهَا التَارِيخ في حَمَاة، خَمـسةَ سَـاعَاتٍ مِـنَ اقتِحَـامِ حَـرَمِ الجَامِعـة وضَـربِي أمَـامَ الطَلبَـة وسَـحبِي إلى الـسِيارة الإجرَامِية واقتِيادِي إلى فِرعِ: 227، أو مَا يُعرَف بِفرعِ المَنطِقة الذي يرأسَـهُ الجَرو المُدَلل لـدَى عَائِلةِ الأسَد اللـوَاءِ: رُسـتُم غَزَالي . رَئِيسِ شُـعبَةِ

المُخَابَراتِ العَسكَرِيةِ..

هَل تَخيلتَ مَشهَد الإهَانَة على مَرأى الوَطن !!

هَل تَخَيلتَ تَطويق حَرَمِ الجَامِعة بِالمُخَابَراتِ العَسكَرِية بِلبَاسِهم المَدَنِي وأسلحتِهم البَيضَاء المُقَدر أنْ تَكُون هَذهِ الذَخَائِر في الجَولانِ وفِلسطِين ولَيسَ في مَكَامِنِ الجُبنِ والذُعرِ.. !

هَل تَخِيلتَ كَيفَ اقتِحَموا مُدرَجِ المُحَاضَرة كالثَعَالبِ المَاكِرة وإفسَادِ حُرمَة الجَامِعة بِلا رَقيبٍ ولا حَسِيب.. !

هَل تَخِيلتَ كَيف تَكَاتَفُوا وتَهَافَتوا عليَّ بالضَربِ بِعُصِيهم أمَامَ أعيُنِ الطَلَبة بِلا شَفَقَة ولا رَحمَة.. !

هَل تَخِيلتَ كَيفَ سَحبُونِي مِن قَدَمَيّ كمَا

يُسحَبُ كِيس القُمَامَة إلى المكبِ الكَبِير.. !

و مَن يَسَألهُم مَاذا يصنَعُون.. !!

لا شَيءٍ .. مُجَرد مِزاح ودَغدَغة في مَشاعِر الوَطن..

دَائِمَاً نَحنُ من يُسأل عَن تَفَاصِلنَا الشِبهِ إنسَانِية، عَن أموَالِنَا التي قَطعت مِنَا تَعَباً، عَن خُبزِنَا مِن أينَ جَلبنَاهُ وإلى أينَ سَنذهبُ بِهِ، عَن أحلامِنَا الضَائِعة بينَ مَلفَاتِ تَارِيخهم المُلفَق، تَجِدُنَا كُلَ صَباحٍ نصطف خَلفَ طَوابِيرِ الذُلِ أمَامَ مَكاتِبهم ومَصَانِعهم ومَعَامِلهم وأسواقِهِم وحَافِلاتِهِم وحتَى أفران الخُبزِ هِي لهُم، لا يُوجد شيء لنَا، فَنحنُ والوَطن ضَحِية وقَرابِين نُقَدمُ لِخدمَةِ مَصَالِحِهم، كَمَا يَحرمُ عَليكَ التَمرُد على

قَـرَارَاتِهم، ومِـن بَـابِ أولى يَحـرمُ عَلِيـك الكَـلامِ ورَفـعِ الـصوتِ ولـو سَـهواً .. هَـل يُهمـكَ رَفـعُ الصُوتِ أو الرأي..

لا أحَـد يُهمُـهُ لا رَأيكَ ولا صَـوتَك، لِـذَلكَ عَلِيكَ أنْ تَخرَس.

كُل شَـيءٍ على هَـذَا الرَمَـاد الـصَامِت مُتَوقِـفٌ على النَهبِ والنَصب، وكُل أبنَاء الشَعبِ تَرعرَعَ على المَوتِ صَمَماً وبَكمَاً..

اخرَس..

لا يُهـم مَـا تَعنِيـهِ هَـذِهِ الكَلمَـة مِـن هَـواجِس بُولُوجِيـة، ولَكِـن للكَلِمـة أبعَـادٌ فِيزيُولوجِيـة تَمِسُ بِمَشَاعِركَ التي لم تَعُد تُهمُكَ بِالأصل .. سَـوفَ أقُـولُ لَـكَ كَيـفَ سـتَتَعلم الـصَمت أو بِلُغـة رُبمَـا تَكـونُ عَفوِيـة كَيـفَ تُجبِرُ صَـقِيع لِسَانِكَ على أن تَخرَس..

عِنـدَمَا كَـوّنَ اللهُ الإنـسَان بِأجزَائِـهِ التَكوِينِيـة مَـزَجَ بينَ تَفَاصِـيلِ عِظَامِـهِ أعـصَاب لِتُـسَاعِده علـى الحَرَكـة وفي نَظَرتِـي علـى القُـوة، ولأنَ الحَرَكـة صِـنفٌ مِـن أصـنَافِ القُـوة، وبَعـدَ أن تَمـت هَـذهِ المَرحَلـة فَلَقـد كَـسا العِظَـامَ لَحمَـاً وغَطَى هَذهِ اللحُوم بِألوانٍ عِدة أطلقَنَا عَليهَا

خَلايَا عُنصُرِية مَعقُودة بِجِينَاتٍ طَبِيعِية لَهَا صِلة بِالبِيئَة التي تُحِيطُ بِالإنسَان كَأجَواءِ الطَينَة التي تَرعَرعَ عَليهَا كُلَ نَفر على هَذهِ الخَلِيقة، واكتَشَفَ الإنسَان بِأنَ لَهُ لِسَان يَتوكَأُ عَلِيهِ ويَهشُ بِهِ مَذَاقَهُ ولَهُ بِهِ مَآرِبُ أُخرى، وقَد أَكَدَ العُلمَاء أو دَعنِي أقُولُ لَكَ العُقَلاء بِأنَ اللِسَان هُوَ السَبَبُ الرَئِيسِي لِتَلمِيعِ وتَحرِيرِ مَا يَدُور في أروِقَةِ العَقل، تَخَيل تِلكَ القِطعَة اللحَمِية العَضَلِية المُقَيَدة بِأعتَابِ الفَكِ التي تَربِطُهَا سَبعَة عَشرَ عَضَلة لتَأمِين حَرَكَتِهِ وعَمَلهِ مَاذَا تَصنَع.. !!

فَقَط في الوَطَن العَربِي يُستَعمَل اللِسَانِ لمَضغِ الأطعِمَة ولَعقِ الصُحُون، ويَا وِيلك ويا سَوَاد ليلك إذا لم تَلعق صَحنَك فَلن تَسلم مِن أهلِ

التَقوى ولا مِن فَصَائِلِ المُتَشِيطِنِين، وحَتى لا نَظلُم العَرب بِحَصرِ عَمَلِ اللِسانِ في فَرمِ الأعلافِ الشَرقِية، فَإنَهُم استَعمَلُوهُ كَمَقَامِ للزَغَارِيدِ في أفرَاحِهِم وأترَاحِهم وفي قُدُومِ مَحجَ أو مَن عَادَ مِن سَفَرٍ أو في ذِكرَى المَولدِ النَبَوي

إشَعَارَاتٍ وَظَفُوهَا مِن أجَلِ أن تَخرَس، وكُلُ مَا ذُكِرَ مِن تَذَوقٍ على مَا هُوَ عَرَبِي ونُوتَته مِن نُوتَاتِ بِدَايَاتِ المَسَراتِ والمُصِيبَاتِ فَإنَهُ حَلالٌ بِكُلِ نُصُوصِ الدِيَانَاتِ السَمَاوِية والقَوانِين الدِكتَاتُورِية، ومَا عَدَا ذَلِكَ حَرامٌ حَرامٌ حَرام

و إنْ أرَدتَ أن تُبدِي للطَرَفِ الآخَرِ وِجهَةِ نَظرَتِكَ حَتى ولو سَهواً، فتَعَالي يا لَيلى فُكّينِي منهُم..

سَوفَ تَتَرَاشَقُ عَلِيكَ وَابِلٌ مِنَ القَوانِين

السَمَاوِية وسِهَامٌ مِنَ المَحظوراتِ الوَطَنِية مَا يَجعَلكَ تَحزِمُ أمتِعتَكَ وتَلوذُ فِراراً مِن ألسِنَتِهم، هَل جَرّبتَ أنْ تَقول كَلمَة: لا !؟..

جَرب وقُلهَا إن كُنتَ رَجُلاً وابنَ رَجُل، وحَتى في أحكَامِ المَنَازِلِ العَرَبِية، جَرب وقُول لا تُرِيد هَذا الطَعَام في وجُودِ وَالِدِكَ بِحُكم أنَكَ لا تُحبُ مَذَاقَهُ أو رَائِحَتَهُ، والله لَيكَفِنُكَ بِغِطَاءِ السُفرة ويدفُنُكَ في أكبرِ قِدرٍ ويَطهُوكَ ويُطعِمُكَ قُربَانَاً عَن رُوحِ أولِياءِ اللهِ الصَالحِين

فَقَط نَحنُ مَن قَيّدنَا هَذَا اللِسانِ وأجبَرنَاهُ على قولِ أشَياء لا نَرغَبُ بِالتَلفُظِ بِهَا، مَحكُومِينَ للوَطَنِية والقَومِية والعَادَاتِ والتَقَالِيدِ والأدِيانِ والقَبَلِية والعَصَبِية وحَتى في ارتِدَاءِ ألوَانِ مَلابِسِنَا الدَاخِلِية ..أنتَ فَقط

جَرِب أن تُعرِض عَن أمرٍ لا تُرِدَهُ ولم تَقتَنع بِهِ، سَوفَ تَحِلُ عَلِيكَ كَوارِثٌ رُبمَا أنتَ بِغِنَى عَنهَا، أو رُبمَا سَتُسحَقُ كَرامَتَكَ هَذَا إن بَقِي لَكَ كَرامَة..

إذَاً عَلِيكَ أن تَخرس وتُعِيرُ لَنَا صَمتَكَ ..

الضَوء..

قُـوة أو لَعَلَهَـا ضـعفٌ سَـتَجِدهُا في سِـجنِي الانفِـرَادِي مَـا لـمَ يَجِـدَهُ العَـالم الحَـسَن بـن الهَيـثَم صَـاحِبِ نَظَرِيـةِ البَحـثِ الـضَوئِي في الجَانب الحَيَوي في عِلمِ المَرئيات..

عُـذراً أيهُـا العَـالم الإنجِلِيزِي إسحَق نيُـوتِن لا مَكَان لِنَظَرِياتِـكَ هُنَـا في هَـذا القَبرِ الانفِـرادِي الخَالِي مِنَ الإشعَاعَاتِ الكَهرومَغنَاطِيسِية..

عُـذراً عَالِمَنَـا الفَلَكِي أيهُـا الفِيزيـائِي الهُولَنـدِي كرِيـستِيان هُـويجِنز أتَمنَى أن تَحـتَفِظ بِنَظَارِيـةِ المَوجَـاتِ الـضُوئِية في كِيس قُمَامَـة وتَرمِي بِهَـا من أعلى شَاهِق..

عُـذرَاً سَـيدِي الإنجِلِيـزي تُومَـاس يُونـغ فَـإنَ

عِلمكَ في تَدَاخُل الأشِعة مَع تَدَاخُلِ الضَوءِ والشُروط التَافِهة التي وَضَعتَهَا لا تُفِيدُنِي هُنَا

وسَوفَ أكُونُ أكثَرُ وَقَاحة مَع خُزعبَلاتِ العَالمِ الفِيزيَائِي الألمَانِي ألبرت أينشتَاينْ والفُوتوناتِ المُجَسَمة التي أبهَرَنَا بِهَا عَامِ 1905 مِيلادِي سَأقُولُ لَكَ سَيدي بِأنَكَ أنتَ وفُوتُونَاتَكَ ونَظَرِياتَكَ ومَوجَاتَكَ النِسبِية مَع كُل هَذهِ الاصطِدَامَاتِ الذِرِية وانعِكَاسَاتَكَ الشَاذَة لا تَسَوى سَاعَةً وَاحِدة في هَذهِ الظُلمَة القَاتِلة لِكُلِ بَصِيصِ نُور..

سَادَتِي العُلمَاء تَقدِيري بِأنَ قُوةَ الظَلام الدَامِس الغَير مَرئِية هُنَا مَا تَحتَ الأشِعة المَحشُوة بِالعَتمَة مَا بِين النِطَاق الوَاسِع مِن 600 إلى 850 دَرَجة ظَلامِية..

أمَا قُوة الصَوت حَدِّث ولا حَرج..

صوتٌ وَاحِدٌ أسمَعُهُ منذُ مَا يُقَاربُ 350 يُوم عَلى حَسَب تَقدِيراتِي الخَيالِية، ألا وهُوَ صَوت قَطَراتِ المَاء التي تَتَساقَطُ على رَأسِي، نِصفُ مِترٍ بِنصفِ مِتر أقِفُ على ذَبذَباتِ الغَازَاتِ الصَوتِية التي تَتَهَافَتُ على رَأسِي في كُل عَشَرةِ رَفَاتِ جَفنٍ طَبِيعِية إن صَحت النَظَرِية..

لَعَل هَذِهِ النَغَمَة لَهَا عِدة تَسمِيات قَطَرات أو زَخَات أو رَعشَات أو العَد التَنَازُلِي للخُوف أو رُبمَا آخر مَا تَسمَعهُ هُنَا، كُل قَطَرة لَهَا سُرعة تَقدِيرِية هَوائِية مُرعِبة ب 500 مِترٍ في الثَانِية أو 2400 كِيلو مِترٍ في السَاعَة، تَتَحركُ على غِشَاءِ أُذُنِكَ بِصَلابَة وكَثَافَة اهتِزَازِية ولَكَأنهَا تَزعَقُ في طَبَلة سَمعِكَ بِمَقُولةِ:

. نِحنَ الدَولة ولاَكْ..

و بِالنِسبَة للتَوازِن وخُصُوصَاً الإدراكِ في السَمعِ فَلم يعُد يزعجَنِي تَقَاطُرِ المَاء فَوقَ رَأسِي، لَقد تَأقلمَت حَواسِي للاستِجَابَاتِ في خَلاياي الشَعرِية وأليَافِي العَصَبِية الدَهلِيزِية مَع هَذِهِ المُوسِيقَى المَائِية .. التي أصبَحت مِن لَحمِي ودَمِي .. ورُبمَا إذا خَرجتُ يَومَاً مِنَ الأيَام مِن هَذا اللحَد المُغَمس بِرفَشة .. وهَذا مُحَال أو لَعَلهُ في الأحَلام .. لن أعُد أستَطع النوم بِدون هَذِهِ المَعزُوفَة بِرُذَاذِهَا الأسطُوري

و أنَا في هَذِهِ العَتمَة القَاتِلة للهَواء لا أُعِد ذَاتِي أُسطُورة بِقَدرِ أنَنِي على قَيدِ الحَيَاة إلى هَذِهِ اللحَظة..

كَم هَذَا السَردُ في تَفَاصِيل السُرعَاتِ الضَوئِية

والسَمعِية يَدعُوا إلى السُخرِية في كَوكَبِي الذي أشَـارِكَهُ شَـياطِين الظَـلام في مَـسَافة تُعَـادِلُ خَمسَة أمتَارٍ تَحتَ الأرض..

هَل مِن أحَدٍ هُنَا .. لا أحَد، حَتى أنَا لَستُ هُنَا

إذًا أنَا أين ؟، ومَاذا أفعَلُ هُنَا.. !!

أُقَـدرُ حَاسَـةِ اللمَـسِ عِنـدِي بِطُـولِ أظَـافِري، التي زَاد طـول كُلِ ظفِـرٍ إلى 20 سَـانِتي، وشَـعرِ عَانَتِي إلى35 سَانتِي مِتر، وأمَا رَائِحَتِي فلا أعلم، ولكِن كَيـف تُطلِـقُ مُخيلتُـكَ لمَـشرَحة انفِرادِيـة يَطـوي فِيهَـا أحـدَهُم ألمَهُ ! .. هِيَ مَأكَلـهُ ومَشرَبهُ وبَيـت خَلائـه مِـن عَـشرَة أشـهُرٍ، بِـاللهِ عَلِيـك كَيفَ سَتَكُون رَائِحَتهُ يا أخا العُرُوبَة !، مِسك وعَنبَر مَثَلاً.. !!

لم أعُد أهتَم للرَوائِح الكَرِيهَة أبَدًا، أنَا عَالِقٌ هُنَا في هَذِهِ المَسَاحَة تَحتَ مَخَالبِ التُرابِ وسُمُومِ السَوادِ ونَتَنِ الرَوائِحِ المُقرِفَة ولا تَنسَى بِأنَنِي عَارٍ مِن كُلِ ثِيابِي..

هَل تَسمَعُنِي.. !!

أنَا هُنَا .. لا زِلتُ أتنَفس شَيئاً مِن الذُلِ والاحتِقَارِ عَسى أن أخلُدَ إلى المَوت، نَعم مُجَردٌ مِن كَافَةِ ثِيابِي الخَارِجِية والدَاخِلِية مُجرَدٌ مِن كَرَامَتِي وإنسَانِيَتِي، ولَيسَ فَقط مُجَرد ومُجرَم بِتُهمَةِ الوَرقِ والقَلم.

هُنَا الجَمهُورِية العَرَبِية السُورِية.

شُعبَةِ المُخَابَراتِ العَسكَرِية، فِرع المَنطِقة العَسكَري، السَاعة الحَادي عَشَرة صَبَاحَاً،

. شُو اسمَك يا ابن الكَلب! ..

جَمِيل السُؤال، والأجمَل على أن لا أُجِيب، والأجمل مِن ذَلِكَ كُلِهِ أن يَقُومَ مِن مَكَانِهِ لِينهَالَ عَليَ بِالضَربِ والشَتم بِوحشِيةِ المُجرِمِينَ والقَتَلة..

. لَيش مَا عم بتجَاوب يَا حَيوان! ..

كِدتُ أن أقُولَ لَهُ بَأن السُؤال مُوجهٌ لِجرو، لأنَكَ لَقبَتَ أباهُ بالكَلب، وأنَا لَستُ جَروَاً وأبِي لَيسَ كَلبًا، كِدتُ أقَولُ لَهُ بِأنَكَ أنتَ كَلب ابنُ كَلب، وأن مَن حَكَمَكُم على أعنَاقِ الشَعبِ أنجس مِن كَلب، ولَكِن هَذا المكَان لَيسَ مَكَانَاً للكِبرِياء والكَرَامَة، إنَهُ مَسَلخٌ للمَهَانَة واحتِقَارِ كُل شَخصٍ يُطلَقُ عَلِيهِ إنسَان..

و بَعَدَ وَابلٌ مِنَ الضَربِ والشَتمِ وسَبِ الذَاتِ الإلَهِيـة ودِينِي واتِهَـامِ أُمِـي بِـشَرَفِهَا، خَرَجَـت الدِمَاء مِن أنفِي وشُجَ رَأسِي وسَمعتُ بِكَسرٍ في ضِلعِي، فَمِن لَهِيب الألم مَلأتُ غُرفَة التَحقِيق أو لَعَلهُ كَهفَ التَعذِيب بِالصُراخ بِكُل مَا أُوتِيَ الوَجَعُ مِن وَجَع، ولأنَ الحَيوان البَري فِيهِ مِنَ الرَحمَة ما يفُوقُ إجرَامهُ زَادَ عَليَ في الضَربِ بِكُـلِ قِـواهُ الدِيكتاتُورِيـة بِعَـصَا مَكـسُورة بِالمَسَامِير..

و للِعِلـم كُنـتُ عَارِيـاً أمَـامَ عَينَيـهِ وأمَـامَ الله، رِدَائِيَ الكَلمَاتِ المُتَورِمَة على جَسَدِي وكِسَائِيَ الـدِمَاء، ولأنهُـم جُبَنَـاء عَـصَبوا عَينِي بِـشَرِيطٍ لاصِـقٍ أسَـودٍ، وأنَـا مُكَبـل القَـدَمَين واليَـدَين بالسَلاسِلِ، ويُريـدنِي أن أجِيبَهُ على سُـؤَالٍ هُـوَ

يَعرِفَـهُ وأمَامَـهُ قَـضِية وتَقَـارِير مُلَفقَـة حَتى مَواعِيد دُخُولِي إلى بَيتِ الخَلاءِ يَعرِفُهَا وعِنَدهُ جَمِيـع تَفَاصِـيلهَا، بِـسُؤالٍ وَاحِـدٍ وبِالـصَمتِ الذِي أغَاظَهُ وأغرَقَنِي بِالدِمَاء، السُؤال فَكَيف بِسُؤَالِهِ الخَامِس مَثَلاً مَاذَا ترَاهُ فَاعِلٌ بِي.. !!

أجَبـتُ بَعـدَ دَقَـائِق مـن الـضَرب والـسَب والشَتم:

. أنَا اسمِي بَهجَت العَظم..

بَعـدَ أن نَطَقـتُ بِاسـمِي لاحَظتُ ذَلِـكَ الهُـدُوء الذِي أرعَبَنِي، سُرعَة الصَمت هُنَا كَانت تَفُوق رِيـاحِ الهُـدُوءِ قَبـلَ العَاصِـفة، ليعُـودَ بِـصُوتِهِ النَشَاز يَشتمُ دِينِي ويَشتُم الله بِكُل قَـذَارة، أيُ صِـنفٍ مِن بَنِي البَشَر هَـؤلاءِ !، وأيّ جُـرمٍ هَـذا الذِي يَجعَلُنِي أقِفُ أمَام حَشَرة مِثَلهُ أو رُبمَا لا

يَعـرِفُ يَكتُـبَ اسـمَهُ ولا يَلفِـظُ اسَـمَ وَطنَـهُ !!، قَالَ لِي صَارِخَاً:

ـ شُـو يـا جَحِـش أبتُكتُـب مُدونـة سِياسِـية وأنـت لـسَاتكَ مـا فَقـسَت مِن البِيـضَة، لَـك يـا حَمَـار وَاحِـد مِتل جَحـشنتَك وطَالـب بِالـسَنَة الرَابعـة بِكِلِيـة الآدَاب شُـو حَاشَـرك بِالـسِياسَة، لـك بشُو مَقصرِين مَعَك يا حَيوَان.. !!

لـم أعُـد أُميز بينَ التَحقِيق والتَعـذِيب، لأنَ كُلَ ألفَاظـهِ التَحقِيقِيـة هِيَ بِحَـدِ ذَاتِهَـا تَعذِيبِيـة، أكمَل غَبائَهُ التَحقِيقِي:

ـ أي سَمَاع يـا جَحِـش أنـت هُـون بِسـورِيا الأسَـد ولا بَغِل..

و لأن الوَطَن أضحَى عَقَاراً لِعَائِلةِ الأسَـد كَتبتُ

للتَارِيخ وللأجيَال ذَلِكَ الشِعَار الذِي رَسَمهُ كُلَ حُـرٍ خَـرجَ عَـن دَأبِ مُجـرِمِ الـوَطن بِعنـوَان: سُورِيا لَينَا .. ومَا هِي لبِيت الأسَد

الصَمت،

أنَا هُنَا، هَل مَن أحدٍ يَسمعَنِي.. !

كُل شَيءٍ لَهُ مِقيَاس في تَكوِين حَالة الإنسَان، وعِندَ الوقُوع في أيَةِ وَرطَة صِحِية أو نَفسِية فَيجَبُ عَلِينَا الالتِزام بِنَصَائِحِ الأطبَاءِ وتَنفِيذ أيةَ حِميَة تُلقَى على عَواتِقنَا، خُذ مَثَلاً مَرضى السُكَري هُم دَائِمَاً في بِلاءٍ مُستَمِر ومُعَرضُونَ للعَطَشِ الدَائِمِ والجُوعِ الشَديدِ والتَبولِ المُتَكَرِرِ والتَبَولِ اللا إرَادي وخصُوصًا عِند حَدِيثِي السَن وعَدمِ الوضُوحِ في الرُؤيَا والالتهَابَاتِ المِهبَلِية والفِطرِية لَدى الإنَاثِ والتَعَبِ والضعفِ العَامِ وفُقدَانِ الوَزنِ والنَحَافَة وهَلُمَ جَرا..

هَل لاحَظتَ كَم أنت تَتَمتع بِالنِعمِ الصِحِية التي يَجب أن تَشكُر مَن وَهبَكَ إيَاهَا بِلا حِسابٍ ولا جَزَاء.. !

أنَا هُنا منذُ أن التَهمَ مِن وِحدَتِي هَذَا المكَان مَا يُقَارب 350 يَوَماً على حَسَبِ دَمَاسَةِ الظَلامِ للتَوقِيتِ المَحلي للصَمت، أتَحدثُ مَعَكَ رُوحَانِياً، أعتَقِد بِأنَ آلةِ اللسَانِ قَد تَعطَلت مِن بَعدِ أقَلَّ مِن عَامٍ على مُزَاوَلةِ الثَرثَرة، بِحَاجة لِتحرِيكِ هَذِهِ العَضَلة ، تَعَال لِنتَحدث عَن السِياسة مَثَلاً أو عَنِ آخِرِ رِواية قَرأتَهَا أو عَن نَوعِ الطَعَامِ الذِي تُحبَهُ..

طَعَام .. !، يا الله كَم أنَا جَائِع،

هَل تَعرِف الوَجبَات التي تُقدم لِي كُلَ يَوم ؟ .. تَخَيل بِأنهَا تُلقَى عَلي مِن نَافِذة صَغيرة كَمَا

تَتَبعتُ آثَارَهَا بِيَدين مُكَبلَتِين، وَجبَة وَاحِدة كُل يَومٍ نِصفُ رَغِيفٍ مِن الخُبزِ العَربِي وفِيهِ شَيءٍ مِن مُربَى المُشمُش، تَخَيل حَجم الجُوع الذِي أفقَدَنِي التَوازُن والإلتهَابَاتِ والتَقرُحَاتِ والجَراثِيم والمكروبات السَبحَية ومَكروباتِ السَيلانِ والجَرَاثِيمِ المُسَبِبَة لِفَمِ الخَندقِ والخِنَاقِ والتَدرُنِ وفِطَرِ القُلاعِ وحُمَاتِ قُروحِ البَردِ والحَصبَة والتهَابِ الأمعَاءِ والحُمى القِرمِزِية والزُهرِي..

تَخَيل وأنتَ الآن مُستَلقِي على أرِيكَتكَ وأنتَ تُمسِكُ سِيجَارتِكَ أو رُبمَا تُقِلُ الحَافِلة أو المِترو وأنتَ جَالِس على نَافِذَة الحَياة وتَستمتع بِكُوبٍ مِن القَهوة الغَربِية أو العَربِية، كَم أَنَا جَائِع فِي هذِه اللحظَة .. لا أكتُبُ لأُثِير شَفَقَتَكَ

عَلي .. لا والله بَل صَدقنِي بِأنَنَي جَائع وأتَألم مَع كُلِ لُقمَة تُرمَى عَلي مِن نَافِذة صَغِيرة للانفِرادِية التي أعِيشُ مَع جُدرَانِهَا، بل التي لا أعَرفُ لَونَ مَسَاحَاتِهَا بالأصلِ..

صَدِيقِي الذِي يَقرأنِي .. لا أُرِيدُ أنْ أسُدَ مُتعَتَكَ بِالقِراءة ولِكن أُقسِمُ لَكَ بِأنَنِي أنَا هُنَا لا زِلتُ أتنَفَسُ مِنَ الخُنُوعِ مَا لم تُشَاهِدهُ في أفلامِ الهُوليُوود العَالمِية..

أنَا أقَبلُ أن أكُون مُصَابَاً بِالسُكَرِي والضَغطِ الدَمِ وحَتى يا سَيدي السَرطَان ولَيسَ مُبَالغَة وحَتى الإيدزْ على أن أخرُجَ مِن مُنفَرِدَاتِ الصَمتِ والظَلامِ..

هَل مِنَ المُمُكِن أن لا تَستَهزئ بِي.. !

الذِي أحضَرَنِي إلى هُنَا هُو الكَلام،

هُنَا على مسَاحَاتِ النِفَاقِ العَرَبِية لَيسَ كُل مَا يُنطَق يَجبُ عَلِيك أن تَستَمعَ إليهِ ولِيس كُل مَا يُصَمَت لَهُ أضحى قُرآنَاً يُستَمعُ لَهُ ويُنصَت، بَل هُنَا الصَمتُ فَرِيضة ووَاجِبٌ وَطَنِي وقَومِي وحَتى طَائِفِي على جَمِيعِ أفرَادِ الشُعُوبِ، فَالحُرِية عَن الرَأي مَثَلاً تُعدُ جَرِيمة، رُبَمَا لَو تَخطَيتَ حَرمَهَا سَتكُون جَاراً لِي في المُنفَرِدة المُقَابِلة التي رَحَل نَزِيلهَا إلى الدَارِ الآخِرة مِن بَعدِ دُخُولِي إلى القَبرِ السِياسِي بِأيَامٍ، هَل تُريد أن تَخرجُ عَن المَألوفِ الذي رُوّضتَ عَلِيهِ قَومِياً وطَائِفِياً وتَقَالِيدِياً مَثَلاً .. بَالله عَلِيك جَرب! ..

أنَا أعلم بِأنَك جَبَان أمَامَ الحَقِيقَة وأمَام

ذَاتَكَ!

هَـل أنـتَ خَـائِف مِـن الـسُجُونِ والقُـضبَانِ والمُعـتَقَلاتِ والمُنفَـرِدَاتِ الـسِياسِية !.. وهَـل مُعتَقَلو الرأي والخُروجِ عَن تُرهَاتِ الاستعبَادِ، أضحَت قَضَايَاهُم جَرِيمة.. !

ذَاتَ سِجنٍ وعِند مَا خَرجَتُ مِن أحدِ الأفرُعِ التي طَوت مِن جِلدِي سِياطَاً مُبرِحَة قَبلَ سَنة وَاحِدة مِن اعتِقالِي الأخَير، كَانَ وَالِدي يَنتَظِرُ خُرُوجِي على بَوابَة سِجنِ صَيدنَايا العَسكَري في القِسمِ السِياسِي، فعِندمَا لَمحَنِي أمسَكَنِي وضَمَنِي بِحَرارَة، وكُنتُ مُتعَباً نَفسِياً وجَسَدِياً مِن مَشَاهِدِ التَعذِيبِ والدَموِية تَحتَ سَقفِ الوَطن، قَال لِي رَحِمَهُ الله:

ـ يَابَا ارفَع رَاسَك تُهمَتُكَ تُهمة شَرف وأنَا أعتَزُ

وأفتَخِرُ بِكَ..

رَحِـمَ اللهُ وَالِـدي الـشَهِيد: عَـامر أُبـو مَيـسَم وأسَكَنَهُ فَسِيح جِنَانَهِ، كَانَ بِالنَسبَة لِي مَصدرَ فَخرٍ وهَيبَة أرفَعُ رَأسِي بِهِ أينمَا اتَجَهتُ، لَقد أستُشهِد كَمَا كَانَ يَحلُم،

في سِجنِ صَيدنَايا وَقَعَ البَطَلُ شَهِيداً في أيَادِي الله ورَوَت دِمَائَهُ تُرابَ الصَمتِ لِنُكمِلَ المَسِير خَلفَ ظلهِ ونَبضِهِ ونُورِهِ..

لا زَالَت حُرِية الرَأي مُقَنَنَة ضِمن إطَارٍ تَعسُفِي مِن قِبَلِ جَلَّادُو قَضَايَانَا، فَكُلِ العَالم تَحرَرَ مِن هَـذِهِ الأزمَـة ولا زِلنَـا نتَخـبَطُ في المُعـتَقَلاتِ السِياسِية بِسَبَبِ فِكرة، أقـصِد بِالفِكرة بِأنَنَا فَكرنَا بِهَا بِصوتٍ عَالٍ، هَل تُرِيد أن تُلقِي نَظَرة على حُرية الرأي في بَعضِ البُلدَان النَاجِحة،

بَل بِتَحرُرِ الرَأي الذِي لا يَمسُ بِالطُوائِفِ ولا يَدعُو إلى الاقتِتَالِ والفِتَن، وكَيفَ وَصَلَ بِهِم المَطَاف إلى قِمَة الحَضَارَة والرُقِي.. !

كَفَرنسَا وألمَانِيا وبُولنَدَا وكَندَا والوِلايَاتِ المُتَحِدة الأمرِيكِية وبَلجِيكَا وأستُرالِيا، فِعندمَا طَبَقَت هَذِهِ البُلدَان التَعرِيف التَالي: الحُرِية في التَعبِير عَنِ الأفكَارِ والآراءِ عَن طَرِيقِ الكَلامِ أو الكِتَابَةِ أو عَملٍ فَنِي بُدُونِ رَقَابَة أو قُيودٍ حُكُومِية بِشَرطِ أنْ لا يُمَثِلُ طَرِيقَة ومَضمُونَ الأفكَارِ أو الآرَاءِ مَا يَعتَبرهُ خَرقَاً لِقُوانِينِ وأعرَافِ الدولِةِ..

أضحوا قَادة وسَادة ومُلُوك، وأصبَحنَا نَحلمُ بِالحَجِ والهِجرة إلِيهَا عَسى أن نُضَمِدَ جِراحِ مَحَابِرَنَا وخُدوشِ صَمتِنَا..

هَل تَسمَعُني .. أنَا هُنَا،

أنَا المُعتَقَل السِياسِي،

صَدقنِي بأنَنَي أُحبكُ يا أخَي..

نَسِيت أُعرِفُك بِنَفسِي،

أنَـا اسـمِي بَهَجَـت مِـن العَائِلـة الـسِياسِية السُورِية المَعرُوفَة بِعَائِلةِ: العَظم . هَل سَمعتَ بِهَـذِهِ العَائِلـة مِـن قَبـل !، حَـسَنَاً أول رَئِـيسٍ للـوَزَراءِ في عَهـدِ الجَمهُورِيـة الـسُورِية وحَـاكِم دَولـةِ دِمـشق ورأسِ أولِ مَجلـسٍ للـشُورى ألا وهُوَ:حَقِي العَظم..

ذَلِـكَ الرَعِيـل الأولِ لِتَأسِـيسِ الدَولـة الـذِي عُـرِفَ بِنَزَاهَتِـهِ وصِـدقِهِ، أنَـا أنحَـدِر مِـن هَـذِهِ الـسُلالَة الوَطنِيـة التي ظُلِمَـت مِـن قِبَلِ نِظَـامِ

البَعـثِ وسَـفَاحِهَا حَـافِظَ الأسَـدِ وابنَـهُ طَبِيـبَ الإجرَامِ بَشَـارِ الأسَـد..

طَالِبـاً في الـسَنة الرَابِعـة لـلأدَبِ العَرَبِـي في جَامِعَةِ دِمشق المُحتَلة، مُعَـارِضٌ وَرَقي في زَمنِ الخُنوعِ والخُضُوعِ للكِلابِ المُنتَشِرة في البِلادِ..

و حَتى لا أنـسَى أنَـا مِـن دِمـشق أعِـيش في حَي العَمَارة الدِمشقِي القَدِيم، ولي وَالد ووالدة..

وَالِدة .. يا قَائِدَ الأشُواق كَيفَ حَالهَا الآن ؟

أنَا في شَـوقٍ لَهَا، كُلمَا تَسللت إلى مُخيلَتِي بِكَافَةِ عَتَادِهَـا الأُمُـومِي، هنَـاكَ شَيء وَاحِـد في يَـصرُخ في ظُلمَتِي قَائِلاً:

بِـدي أطَلَـع، بِـدي أرَجـع عَـالبِيـت، بِـدي أتَحمَـم بِمـي سَـاخِنة وشَـامبُو مَعطـر، بِـدي أنَـام عـا

تَختِي، وأحضُن أمِي، ومَا عَاد بِدي أتخَانق مَع أخِي ولا أنرفِـز بِوجـه أُختِي، أنَـا هُـون عـم تِسمَعُونِي !!

الخَوف،

أنَا هُنَا، هَل مَن أحدٍ يَسمعَنِي.. !

الخَـوف هُـوَ اجتيـاح جُيـوشٍ مِـن المَـشَاعِر النَاجِمـة عَـن الخَطـر، أو التَهدِيـد أو الوَعِيـد المُتَـصَور أن يَحـدُث في أنـوَاعٍ مُعيَنـة مِـن الكَائِنَـات الحَيـة، وتَقُـوم بِـدورِهَا بِالتَـسبُب في تَغيّرِ وَظَـائِفِ الأيَـضِية والعِـضوِية وتُفـضِي في نِهَايةِ المَطَافِ إلى تَغِييرٍ في السُلوكِ..

هَـذِه نَظَرِيـةِ العُلمـاءِ في مَا يَدُور حَـولَ الخَـوف في دَاخِلِ أي إنسَان يَشعُر بِأنهُ مُهَدد مِن قِبَلِ أي شَيءٍ يُرِيبَهُ أو يَكسُوهُ بِالقَلق..

أَنَـا الغَـارق بِحُلكَـة المكَان، وأتَحـدثُ مَعَـك مِـن نَفَقٍ انفِرَادِي قَد ذَوَبَنِي الخَوف في مَحلُولِهِ اللا

مَنطِقِي..

تَعَال مَعِي لأقتَرِحَ عَلِيك اقتِراح! ،

نَستبِدل الأمكِنَة، أنتَ تَأخُذ دَورَ المُعتَقَل السِياسِي، وأنَا آخُذ مَكَانَك وأجلِسُ على أرِيكَتك وأستَعِير كُوبَ قَهوَتكَ أو أتَكأُ على كُرسِي سَفرك وأحمَلُ حَقَائِبَ رَحِيلكَ أو أدخُل مَطبخُكِ وأُعِد كَأس الشَاي بالنِعنَاعِ وأستَلقِي على سَرِيرِكِ، هَل أخبرُك عَن دورِكِ أو المَشهَد الذِي سَأعطِيهِ لكَ! ..

تُجَرد مِن كَافَةِ كَرَامَتِكَ، وعَورَاتَكَ مَنشُورة على حَبلِ الوَطن، يَأتِيكَ عُنصُرٌ رُيبِضَة أشعَثٌ أتفَهُ مِن كِيسِ قُمَامَة، يُجَرِدُكَ حَتى مِن رَاحَتِكَ ويَقُومُ بِإغلاقِ آلةِ الزَمَانِ أمَامَ عِينَيكَ، ويُكبِلُ يَدِيكَ وقَدمَيكَ بسَلاسِلِ الإجرَامِ،

ويَقُومُ بِإجلاسِكَ على قَارُورة للكَاككولا لِفَضِ بَكَارَة شَرَفِكَ بِكُلِ قَذَارة وحَقَارة، وتُفَضُ حَلقَة شَرجِكَ بِالدِمَاءِ وتُكسَرُ الزُجَاجَة في مُؤخِرَتِكَ، ولا مُنقِذَ لَك ولا لِشَرَفِكَ ولا لِصَوتِكَ أحد، على فِكرة إن كُنتَ رَجُلاً وأبَاكَ رَجُل ارفَع صَوتَكَ في حَالِ الألمِ أو إدخَالِ تِلكَ القَوارِيرِ الزُجَاجِية في دُبُرِكَ، أنَهُ استقبالُ الأفرُعَ المُخَابَرَاتِية لِكُلِ دَخِيلٍ وَطِأَ حَرمِ الخَوفِ بِين أروِقَةِ الاغتِصَاباتِ، السُؤَالِ الذِي يَطرحُ ذَاتَهُ دَائِمَاً كَم مِن أدبَارٍ فُضَت على بَلاطِ المُخَابَراتِ السُورِية.. ! ،

و مَن يَسألُهم عَن إجرَامِهم يا صَدِيقِي.. !!

هَل تَخَيلتَ مَشهَدِ الاغتِصَابَاتِ والتَحرُشِ المُتَعَمد للمُعتَقَلِين السِياسِيين خَلفَ قُضبَانِ

وجُدرَانِ الخَوفِ، وهَل أعجَبَكَ هَذَا السِينَارِيو السِكسِي ومَشَاهِد الأكشِن الإبَاحِية، وهَل تَعتَقد بِأنَ بَعد أن أُزهِقت عُذرِيتِكَ سَيَأتِي مِن بَعدِهِ خَوفَاً.. !!

مَاذا بَقِي بَعدَ هَذهِ الشَهَوة الحَيوانِية التي أودَت بِشَرفِ كُلِ زَائِرٍ دَاسَ رُعبَهُم.. !!

التَحلِيل الذِي أرهَقَ تَفكِيري ومُعَادَلةِ الظُلم في هَذَا العَالم، هُوَ الخَوف المُتَفَاوِت بِينَ أن تَكونَ الفَضِيحة سِراً على أيَادِي جَلادِكَ وبينَ أن تُمَارس الرَذِيلة عَبر العَدَسَاتِ والكَمِيراتِ الأمرِيكِية ليُشَاهِدُهَا مَلايِينِ البَشرِ في كُل أنحَاءِ العَالم..

الفَرق وَاضِح جِدَاً..

هَل سَمعتَ بِشَعبٍ استَقبَل مُحتَلهُ بِالورُودِ كَمَا قَالت اللجَنة التَحقِيقِية التي دَخَلت العِراق قَبلَ الاحِتِلالِ الأمرِيكِي، حَيثُ قَالتْ:

بِأن شَعبَ العِراق سَوف يَستَقبِلُ الأمرِيكِيين بالوُرود،

نَعم حَدثَ كمَا نَجَّمَ المُحَقِقِينَ الدُولِيين، ولَكِن مَا إن أحَاطَت جُنُودِ الإحتِلالِ وزَارَةِ وآبارِ النِفطِ العِراقِية حَتى تَقَاسَمَوا الأمرِيكَان الكَعكَة، فَكَانَ مِن نَصِيبِ آل بُوش الآلِهة الدِكتَاتُورِية الأمرِيكِية آبَارِ النِفطِ والثَروَاتِ البَاطِنِية وكَانَ مِن نَصِيبِ الشَعبِ الأمرِيكِي الثَرواتِ التَارِيخِية وقَد أخَذَ الجُنُودِ المُحتَلِين رِقَابِ الشَعَبِ للتَسلِية والتَعذِيبِ والفَضِيحة

..

أنَـا أعلـم بِأنَـك لـن تُـصَدِقَنِي لأنَـك لـم تُجَـرب طُقُـوسِ الخَـوفِ، وأعَلـم بِأنَـكَ جَبَـان، ورُبَمَـا سَـتُغلِق رِوايَتِي ولُـن تُكمِلَهَـا لأنَك بِلا ضَـمِير ولا إنـسَانِية، وهَـل يُهمُـكَ أمـرِي وأمـر كَثِيـر مِـن المُطَـالِبِين بِحُقُوقِـكَ وحَـقِ كُـلِ شَـخصٍ يَطمَـحُ للحُرِيـة ووَطـنٍ خَـالٍ مِـن أي نِظَـامٍ اشـتِراكِي دَكتَاتُورِي..

اقلِـب الـصَفَحة إذَاً لِنُكمِـلَ القَاسِـم المُشتَرك بين المُعتَقلاتِ العَرِبِية والغَرِبِية، لَعلَ الفَرق وَاضِح، ولَكِن لا بَأس بِسَردِ ذَلكَ الخُوف بينَ الأنظِمَـة العَرِبِيـة والأنظمَـة التـي صَـرعَت سَـماءنَا بِنـشِرِ الحُرِيـة والدُيمُقرَاطِيـة، سُـؤال ولَكن أنَا مَن سَيُجِيب..

مَا رَأيكَ بِالحُرِية التي خُدعنَا بِهَا في ظِل دَولَة

الوِلاياتِ المُتحِدة الأمرِيكِية!! ..

جَوابِي لن يَكُون ذَات أحرُف مُشبَعة بِالنِفَاق وتَلمِيع للأحذِية الأمرِيكية كَمَا يَفعَلُ حُكَامَنَا العَرب المُخنَثِين، تَخَيل الحُكَام العَرب، بِأنَنَا نَكتَشفُ بَعد نِصفَ قَرنٍ مِن المكِيدة والخَدِيعة بِأن تَكونَ مِهنَتَهُم حَذَائِيين ومُلمِعِين للأحذِية الأمرِيكِية! ..

هَل سَمعتَ بِسجنِ أبو غَرِيب ؟..

سِجن يَقَعُ بِيدِ الأمريكَان وقُربِ مَدِينَة أبُو غرِيب في آنٍ وَاحِد الذي يَبعُدُ مِن عَاصِمة الرَشِيد بَغدَاد 32 كِيلو مِتر، لِيس هَذا وحَسب، هَذَا المُعتَقل المُحتَل مِن قِبل أحفَادِ المُحتل كرِسُتوف كُلومُبس حَيثُ كَان أبَو غرِيب أحدِ شَوَاهِدِ النَحسِ في عَهدِ صَدامِ

حُـسِين، واليَـوم وبَعـد أن عَمـت الحُرِيـة في العِـراق جَـاء جَـلاد آخـر بِقنَـاعٍ كَـاذِبٍ، هُنَـاك وبِين جُـدرانِ المُنفَـرِدَاتِ أبهَرتنَا وَسـائِل الإعـلامِ الأمرِيكِية يَوم 20 يُونيو حُزِيران مِن عَامِ 2003 مِـيلادي، بِـصُورِ نَائِـبِ وَزِيـر الخَـوف والرُعـبِ والـدِفَاعِ الأمرِيكِي الكَندُولِيزا بَاول ولفـويتَز وهَـوَ يَتبَجح عِند مَدخَل السِجنِ، لِيُري العَالم أنَه حَرَرَ الشَعب العِراقِي مِن لَعنَاتِ ووَيلاتِ ذَلِك السِجن السيئ الصَيت..

و حَتى يَخـرس هَـذا العَـالم القَـذِر، نَـشَرت صَحِيفَةِ دَاغِـبلادِت النَروِيجِيـة في 25 أبرِيـل نِيـسَان عَـامِ 2003 مِـيلادِي تَقرِيـرَاً مِـن العِيـارِ الجَنسِي الثَقِيل حَيثُ قَالت:

بَعد أن سَيطَرت القُواتِ الأمرِيكِية على أرَاضِي

العِراقِ مُبَاشَرة، صَوروا السُجنَاءِ العِراقِيين مُساقِينَ وهُم عُراة مِن كَافَةِ كَرامَتِهم مُجردِينَ مِن ثِيابِهم، وعلى أجسَادِهم عِباراتٍ مُهِينة وقَذِرة كَتبهَا سَجَانُوهم الأمرِيكِيين..

و الشُهُود الذِينَ خَرجَوا زَينُوا أسمَاعِنَا بِتَقَارِيرٍ مُفجِعة:

صَب مَواد كِمَاوِية حَارِقة على أجسَادِ المُعتَقَلِين، وصَبِ المَاءِ البَارِد عَليهِم وهُم عُراة، وضَربِهم بِالكَراسِي والمكَانِس، ونَكئِ جِراحِ الجَرحَى مِنهُم إمعَانَاً في إيلامِهم، ودَفعِهم إلى الجِدارِ بِعُنف، وإدخَالِ عُصِي المكَانِس في أدبَارِهم، وصَبِ المَوادِ الكِيمَاوِية المُؤذِية في أدبَارِهم، وتَسلِيطِ الكِلابِ الجَائرة والجَائِعة لِنهَشِ أجسَادِهم العَارِية، ورَبطِ أصَابِعِ أيدِيهم

وأرجُلِهـــم وأعـــضَائِهم التَنَاسُـــلِية بأســـلاكٍ كَهرُبَائِية صَاعِقة، والانتهَاءِ مِنهُم بالقَتلِ بِدَمٍ بَـاردٍ على حَـسَبِ مِـزاجِ الجُنـدِي أو الـضَابطِ الأمرِيكِي..

شُو رَأيك يا أيُهَا القَارئ .. ؟

ذَات الإجــرام تَجــدَهُ في مُعــتَقلاتِ الأنظِمــة العَرَبِية، ولَكن الكُومبَارس من نَفسِ سُلالَتنَا والقُــضبَان بُنيـت على جَماجمِنَـا، والتَعـذِيب والسَلخ والقَتل يَفُوقُ كُل الجَرائِمِ الإنسَانِية، ولا مُسكِّن لأدبَارِنَـا المُغتَـصَبة سِـوى تَندِيـدَاتِ وتَـــصرِيحَاتِ المُنظمَـــاتِ العَالمِيـــة لِحُقُـــوقِ الإنسَان، رَحمَ الله وَالِدي فَلقَد كَان يَقُول:

تَندِيـدَات المُنظمَـات الإنـسَانِية حِنـة لأدبَارِنَـا المَفُتُوحة، وبَلسَمٌ وتِرياق لأجسَادِنَا المُغتَصَبة..

أنَا هُنَا، هَل تَسمَعنِي .. !

فَياغرا،

أنَا هُنَا، هَل مَن أحدٍ يَسمعَنِي.. !

تَمَامَـاً أيــةُ مُـشكِلة تُواجِــهُ الإنــسَان كانَــت جَسَدِية أو نَفسِية أو عَاطِفِية وحَتى جِنسِية أو رُبمَـا قَانُونِيـة أو حَربِيـة أو دِكتَاتُورِيـة، يُوضَـعُ هَـذِا الخَلـلِ النَـسبِي أو الجُزئِـي أو الكُلـي في مَخَابِرِ العُلمَاءِ والمُحَلِلُون للعُثُورِ على حَلٍ لِهَذَا الـدَاءِ العُـضَالِ، فَفِي عَـامِ 1996 مِـيلادِي تَـم تَوثِيـق الـدَواء المَعـروفِ بِالفَيـاغرَا في مَكتَـبِ بَراءةِ الاختِراعِ الذِي تَمَ اعتِمَادهُ مِن قِبَلِ هَيئِةِ الغِـذاءِ والأدوِيـة الأمرِيكِيـة في 27 مَـارِس عَـامِ 1998 مِــيلادِي، كَمُنــتَج صَــالِح للاســتعمَالِ الآدَمِي وكَـأولِ دَواءٍ لمُعَالجَـةِ العَجـزِ الجِنـسِي

لَدَى الرِجَال على حَدِ الخُصُوص، وحَتى أُثبِتُ لَـك مَـدى أهمِيـةِ هَـذهِ العَقَـاقِير التي تُـؤثِر في تَهيجِ الـشَهوَاتِ الجِنسِية، وبَعد بَحثي الطَوِيل قَـد أثَبتَ هَـذا المُستَحـضَر بِينَ عَـامِ 1999 إلى عَـامِ 2001 إلتِهَـامِ مَلايِينِ الكَبسُولاتِ الزَرقَـاءِ المَعرُوفَـــة بـــسيلدينافِيل، وجَنِـي مِليَـــارَاتِ الدُولارَاتِ في حِسَابَاتِ شَرِكَاتِ الأدوِية..

هَذَا يَعنِي بِأنَ الرِجَالِ قَد انقَرَضُوا كما قالَت أمَل حَمَادَة..

و مُكوِنَـــاتِ المُقوِيـــاتِ الجِنـــسِية كَمُكُوِنَـــاتِ المَورُثِ الإجرَامِي بِين أسرَارِ المُعتَقلاتِ والأفـرُعِ المُخَابَرَاتِية في دِمَشق، مَا بِينَمَا الغَرب يَبحث عَـن مُقَومَـاتٍ وحُلـولٍ جِنـسِية للقَـضَاءِ على العَجــزِ والــضَعفِ الجِنــسِي للتَلــذُذِ بِــولائِم

اللُحُومِ البَيضَاءِ والشَقَراءِ، كَذالكِ في دَاخِلِ الأقبِية والمُعتَقَلاتِ والمُنفَرِدَاتِ هُنَاك حُلُولٍ وأدوِية وعَقَاقِير لِجَعلِ الجَلادِين يَتَمَتعُونَ بِولائِمنَا الجِلدِية السَمراء ولُحُومِنَا العَرِبية، ولَدى كُلِ سَفَاحِ نِظامٍ لِفَضِ شَرفِ كُلِ دَخِيلة بِأيَةِ تُهمَةٍ كَانَت والقَضَاءِ عَلِيهَا مِن بَعدِ فِعلَتهِ

عِنَد دُخُولِ أيةَ مُتَهمَة سِياسِية، ومَع العَلمِ وقَبلَ التَحقِيقِ، ومَع أنَ التُهمَة لم تَثبُت عَلِيهَا تَخضَع لِعدةِ وسَائِلٍ قَذِرة لِتَذُوقَ طَعمَ الألمِ قَبل أن تَحلُمَ بالأمَلِ..

و مَع أنِنَي أتَحدَثُ مَعَك مِن كَهفِ إحدى المُنفَرِدَاتِ التي لا أرى فِيهَا سِوى الظَلامِ المُشبَع بِالرَوائِحِ القَذِرة، فَأتمنَى أن تُشَنِفَ أنظَارِكَ وأسمَاعِكَ لِما سَتسمَعَهُ مِني، وبِاللهِ

عَلِيك لا تُغلق الكِتَاب حَتى الانتهَاءِ مِنهُ، لا تَفعل كَمَا يَفعل القَومِيونَ والمُتفَلسِفونَ والثَائِرونَ كَلامِياً وصُراخِياً عِندَ مُرورِهِم بِالمَحطَاتِ الإخبَارِية ورَوائِحِ وفَضَائِحِ شَرَفنَا على القَنُواتِ بِعِدَةِ نَكَهَاتٍ مُخزِية، وحَتى لا يَروا أصنَاف الخِزِي والعَارِ العَرَبِي والعَمَالة والنِفَاقِ التي أوصَلتَنَا إيَاهَا الحُكُومَاتِ العَرَبِية، فَإنَهَم يَمرُونَ مِنَ هَذِهِ الفَضَائِيَاتِ مُرورَ يلي عَامِل حَالو مُو شَايف شيئ..

أنَا أعلم بِأنكَ شَعرتَ بِالمَلل، حَسَانَاً اذهَب واحضَر مُبَارَاة رَيَال مَدرِيد مَع بَرشَلونَة، وحَتى في عَالمِ الأروَاحِ الرِياضِية مُتنَافِرِين ومُتَقَاتِلِين، وإن لم تُعجِبُكَ هَذهِ القَناة تَمتَع بِبرنَامَجِ آرَب أيدُول الذي كَلفَ 14 مِليُون

دَولارَاَ، في وَقت مَجَاعَات الأخُوة العَرب على مِين يشِيل..

عِندمَا تَنزِلُ في فَنَادِقِ الأفرُعِ المُخَابَراتِية السُورِية أيةُ أختٍ أو أُستَاذَة أو أمٍ تُستَقبل في الجَنَاحِ المَلكِي، ولِكَي يُثبِت الفَيَاغرَا مَفعُولَهُ فَإنَهُ يُوزَعُ على الفِئرانِ التَي تَعملُ بِصِفَةِ سَفَاحِين المُجَرَدِين مِن الضَمَائِر بِشَكلٍ عَام، ولِكَي تَرى العَجَبَ العُجَاب، أسمَع مَاذا سَأقُول لَكَ:

فَورَ تَخطِي أقَدَامِ أيةُ أُختٍ لكَ إلى تِلكَ الكُهُوفِ الإجرَامِية، تُجَردُ أُختُكَ مِن كَافَةِ ثِيابِهَا، وبَعد ذَلِكَ تُستَقبَلُ بِالصَعقَاتِ الكَهرُبَائِية، حَيثُ تُثبَت الأسَلاكِ الكَهرُبَائِية في الأذُنِينِ والفَمِ والأنفِ والأطرَافِ والثَدِيينِ

والأعـضَاءِ التَنَاسُـلِية، وتُـضَرب جَمِيـع أجـزَاءِ الجَـسمِ بِكُـلِ دَمَويِـة وعِنـدَ الانتهَـاءِ، تُعـذَبُ بِـالوَقوفِ حَيـثُ تُجَبرُ أختُـكَ المُعتَقَلـة على الوقُـوفِ مِن أربَعـةِ سَـاعَاتٍ إلى سَـبعَة عَـشرة سَاعة مِن دُونِ أن تَتَحرك، مِمَا يُحِيلُهَا إلى ألمٍ شَـدِيدٍ في الكِلى والمَفَاصِلِ والظَهرِ وفي الغَالبِ يُغمَـى عَلِيهَـا مِـنَ الإنهَـاكِ والتَعـب، وبَعـدَهَا تُـسحَب إلى الـدُولاب، حَيـثُ تُوضـع أُختُـكَ المُعتَقَلـة دَاخِـلِ عَجَلـة سِـيارَة ويَقُـوم الجَـلادِ بِتَقِييـدِهَا وضَـرِبهَا بِـشِدة، وبَعـد الـدُولابِ يـأتِي التَعـذِيب عَـن طَرِيـق الكُرسِـي، حَيـثُ تُـضَع المُعتَقَلـة دَاخِـلِ هَيكَـل كُرسِـي أي بِـدون أن يَكون للكُرسي مِقعَدَاً مَحمِي بِالقَشِ أو الجِلدِ أو الخَـشَب مِمَـا يُـؤدِي ذَلِـكَ لِـشَلِ حَركَـةِ

المُعتَقلة ويَقوم الجَلادِ بِالجَلدِ بَكَافَةِ عَتَادِهم القَذِر، ونَاهِيكَ عَن التَبولِ في فَمِ المُعتَقَلاتِ وو إجبَارَهُنَ على ابتِلاعِ بَولِ السَجَانِ، وإجبَارِ المُعتَقلاتِ على الجُلوسِ على قَوارِيرِ الخَمرِ، وقَلعِ الأظَافِر والعُيونِ وكَسرِ الأسنَانِ وإخراجِ ونُبشِ الأحشَاءِ، ونَتفِ الشَعرِ بِالكَمَاشةِ والعَضِ والرَكلِ والبَزقِ، وإجبَارِ المُعتَقَلاتِ على أكلِ الجُرَذَانِ والفِئرانِ، وإجبَارِ المُعتَقَلاتِ على تَنَاولِ الأطعِمة مِن بَعد أن يَتَبول عَليهَا السَجَان، واغتِصَابِ النسِاءِ والشُبانِ والأولادِ حَيثُ أنَ يُذهب بِالفتَياتِ الجَمِيلاتِ إلى رَئِيسِ الفَرعِ بِينَمَا الفَتَياتِ العَادِياتِ يَكُنَّ في مَضَاجِعِ السَجَانِين، وبَعدِ أن تَفرُغ دَورِية مُؤَلفَة مِن عِدةِ شَبِيحَة مِن اغتِصَابِ الفَتَاة،

تُؤمَر هَذهِ الفَتَاة مَرة أُخرى بِالاستحمَامِ ومِن ثُمَ تَأتِي دَورِية أُخرى لِنَهشِ شَرَفِهَا وهَكَذا كُلَ يَومٍ، أمَا المكَان الذي تَنَام بِهِ هَذِهِ المُعتَقَلاتِ، فَتُعرف بالمُنفَرِدة الصَغِيرة، عَرضُهَا 30 سَنتِي مِتر، على طُولِ كُلِ فَتَاة عِندمَا يُغلق عَلِيهِا البَاب، لِتُصِبحَ مَحصُورة بِينَ البَابِ والجِدَارِ، ومِن ثُمَ تُمَلأُ بِالمَاءِ حَتى تَبلُغَ رَقَبتُهَا، وتَبقَى فِيهَا مِن مُدَةِ اسبُوعٍ إلى الشَهرِ، وأحيَانَاً يَتمُ وَصلِ المِياهِ بِالكَهرُبَاء لِتَكمَل مَع المُعتَقَلاتِ، ومِن أجلِ أن لا أنسَى الخَازوق، يَقُوم السَجَان بِإجلاسِ المُعتَقَلة على الخَازوق الذِي يَبلغُ طُولَهُ الشَبر تَقرِيباً، وقَرضِ الأصَابِعِ بالأبوَابِ، وو إخمَادِ السَجَائِرِ على أجسَادَهِنَ، وإحرَاقِ الجَلدِ بالجَمرِ والنِيرانِ، والضَربِ بالجَنازِيرِ،

والـشَبح الـذِي يُعَـد مِـن أسَاسِـياتِ التَعـذِيب، حَيـثُ تُعَلـق المُعتَقَلـة بِـالقُيودِ أي مَـا تُعـرفُ بِالكَلبـشَة مِـن يَـدِيهَا ووَضـعِ إحـدَى هَـذِينِ القَيـدِين في صَـنَابِير المِيـاهِ المُثَبَتَـة على سَـقفِ المُعتَقَلِ وهُـوَ ذُو مَتَانَـة عَالِيـة، وتُعَلـقُ المُعتَقَلـة مُـدَةِ عَـشَرةِ أيَـامٍ، وأَحيَانَـاً تُعَلـقُ مِـن قَـدَمَيهَا، مِمَـا يُـؤَدِي ذَلِـكَ لتَمـزُق بِالمَفَاصِـلِ عَـن بَعـضِهَا البَعَض..

لا أعَلـم مَـا سَـوف يَتَحـرك فِيـك بَعَـد فِلـمِ الأكـشِن هَـذَا، لَـن أسـتَغرب بِـأنَ كُـلَ مـا سَـيَتَحركُ فِيـك هُـوَ إغَـلاقِ الرِوايـة والـذَهَابِ لِتَنَـاوِلِ وَجبَـةَ الغَـدَاءِ مَـع بَقِيـةِ العَائِلـة والاسـتمتَاعِ بِوَقتـك، على فِكَـرة أنـتَ مُـصَاب بِأزمَـة مَلـل وتَبحـث عَـن البَـدَائِل لِـسَدِ فَـراغِ

الفَشَلِ الذِي أنتَ تَسعَى إلِيهِ رغمَاً عَن أنفِك

خُذلك كَبسُولةِ فَياغرَا وتَوكَل عَلى الله..

و أنجِب لَنَا أحفَادَاً كَأيامِ الزَمنِ الجَمِيل المُرقَعِ بِالذَكرِياتِ، بِهَذِهِ الكَبسُولاتِ الزَرقَاءِ الأمرِيكِية لا أعتَقد بِأنَك سَتُنجبُ لَنَا سِوى مَزِيدَاً مِنَ العُمَلاءِ والمُتَخَاذِلِينَ ومَسَاحِي الأحذِية الغَربِية فَكَمَا تَعلم بِأنَ كُلَ حُكَامَنَا العَرب أتمَمَوا دِرَاسَتَهُم العَسكَرِية والأكَادِيمِية تَحتِ ظِلِ الجَامِعَاتِ الغَربِية والثَكَنَاتِ العَسكَرِية الأمرِيكِية والفَرنسِية والبرِيطَانِية، فَأنَا أشكُ بِالأطعِمَة وحُبَوبِ المُهدِئِ والمُسَكِنَاتِ التي كَانُوا يَأكُلونَهَا في مَطَاعِمِ وصَيدَلِياتِ الغَربِ، وحَتى أطَرح الشَكِ بِاليَقِين فِإنَنِي أُعطِي بَرَاءةِ اختِراعٍ للعَاصِمَة البِريطَانِية

لُنـدُن التي غَـذَت سَـفَاحِ الـبِلادِ بَـشَارِ الأسَـدِ بِفَيَاغَرا الإجرَامِ في جَامِعَاتِهَا عِندمَا كَان يَتربَى ويَترعرعُ فيِهَا عَامِ 1990 للمِيلاد..

يا عَمِي الفَياغرَا البرِيطَانِية التي تَنَاوَلهَا بَشَارِ الأسَدِ في العَاصِمَة لُندُن فَضت شَرَفَنَا وشَرفِ أبُونَا كمَان..

أنَا هُنَا، هَل تَسمَعنِي .. !

حَفنة حُزن،

أنَا هُنَا، هَل مَن أحدٍ يَسمعَنِي.. !

لا شَيء مُجَرد حَفَنة حُزن، لا أقصِد بِالحُزن مَا آل إلِيهِ عُلمَاءِ النَفسِ عِندمَا قَالوا: بِأنَ الحُزن هُـو ألَـمٌ نَفـسِي يُوصَـفُ بِالـشُعُورِ بِـالبُؤسِ والعَجــزِ، وغَالِبــاً يُعتَبَـر الحُــزن هُــوَ عَكــسِ السَعَادَة، وهُوَ شَبِيهٌ بِالهَمِ أو الأسَى أو الكَآبَة

..

هُنَـا في بِئِـر المُنفَـرِدَاتِ التي أسَـسَهَا الطُغَـاة العَرب قَبلَ القَسَمِ على الكتُبِ السَمَاوِية لِتَتِم وِلايتِهِم على سَـعَادَتَنَا، لـنْ يَكُـونَ هُنَـاكَ أهمِيـة لحُزنِكَ مَهمَـا عَظُم أو صَـغُر، اكتَفَيتُ بِحَفَنَـةِ حُـزن حَتى أدَع شَـيئاً للمُـستَقبَل، فَأنَـا هُنَـا لا

أعلم كَم سَأمكُث في هَذَا اللحدِ الانفِرادِي، وإذَا بَالغَتُ بِالحُزنِ وأنفَقتُ جَمِيعَ دُمُوعِي في الأشِياء التي ذَهبَت أو التي سَتَأتِي رُبمَا لَن أجِدَ مَا أحزَنُ عَلِيهِ في المُستَقبل..

دَائِمَا كَان تَفكِيرنَا بِالمُستَقَل هُوَ السَبَب الذِي يُؤرِقُ مَضَاجِعَنَا ويَستنزِفُ الحُزنَ بِكمِيَاتٍ غَلبَ حِسُهَا على مَجَازِهَا..

المُستَقَبل .. ومَا سَنفعَلُهُ بَعدَ كُلِ تَسلسُلٍ أكَادِيمِي ؟

فَقط في وَطنِي سُوريا خَاصة وفي الوَطنِ العَرِبي عَامة..

تَكمُنُ هُنَاك حَقِيقة لا مَفَرَ مِنهَا بَعد كُلِ جَامِعة، ألا وهِيَ البَحث عَن الوَظِيفَة، وإذَا

كُنتَ رَجُلًا دَبّر وَاسطَة..

و الوَاسِطة هِيَ نَمط سُلوكِي غَير أخلاقِي مَبنِي على فَسَادِ المُجتَمَعاتِ الإقلِيمِية ذَات التَفكِير الطَائِفِي والقَبَلي، كَمَا أنهَا تَقُوم على التَمِييز العُنصُري بين المُواطِنِين جُغرَافِياً وتَلمِيع شَرائِحِ بينَ المُجتَمعِ وفِئاتِهِ على حَسَبِ الدَفعِ والتَلمِيعِ والنِفاقِ والمَحسُوبِيات، وهَذِهِ الجَرِيمة في نَفثِ وتَشجِيعِ الوَاسِطَة والمَحسُوبِية تُؤدِي إلى تَشتِيت الصُفُوفِ وشَقِ الوِحدة الوَطَنِية .. هَذِهِ إن كَانَ هَنَاك وحدة وَطَنِية بالأصلِ ! .. وتَزرَعُ العَدَاء في النَفُوسِ والكَراهِية بينَ أبنَاءِ الوَطنِ الوَاحِد، وتُضعِفُ الثِقَة والنَزَاهَة بِالإدَارة وعَدَالتِهَا المِعوَجّة..

و بِسَبَبِ هَذَا المَرض العُضَال الذِي اجتثَّ

مَرضَى النُفُوسِ مِمن أمسَكُوا زِمَامِ مُستَقبَلِنَا بِأيديهم، فَلقَد انهَارَت كَثِير مِنَ المَبادئِ والقِيمِ التي كَتبَهَا التَارِيخ عَن أخلاقِ العَرب، وهَذِه المَبادئِ والقِيمِ أيضَاً مُجرد كِذبَة

و حَتى لا أتشَعب أكثَر بِحدِيثِي مَعك، وحَتى لا تَمَلَ مِن ضَجَري وحُزنِي، عِدنِي بِأنَك لا تُخبِر أحد عَن الأسبَابِ التي جَعلتنَا نَستَخدمُ الوَاسِطة في أمرِ مُستَقبَلِنَا الرَمَادِي بِألوَانِهِ المُزَيفة!

حَسَنَاً، أولُهَا تَحقِيقِ المَصَالحِ المُتَبادَلة بِين الوَسِيط والوَاسِطة والمُتَوسِط لَهُ فَفِي ضَمِيري الوَطنِي هَؤلاءِ الثَلاثَة كُلُهم أولادِ حَرام، ثَانِيهَا التَأثِير بالقِيمِ الاجتمَاعِية المُتَشَرِبة في وحَلِ الوَلاءِ العَائِلي والعَشَائِري

وإعَـادَةِ إنتَاجِهَـا دُونَ اسـتِجَابَة للمُغَيـراتِ الحَدِيثَة وهَذَا البَند أشَدُ حُرمَة وجِنَاية، ثَالِثُهَا تَفَشّي الفَقرِ فِي ظُروفٍ اجتِمَاعِية واقتِصَادِية صَعبَة كَمَا تَمرُ بِهَا جَمِيعِ الدُولِ العَربِية التي تُحِيل بِمسُتقَبل المَوهُوبِين إلى شُحِ المَصَادِرِ اللازِمَة لِخلقِ فُرَصِ عَملٍ أو لأدَاءِ الخَدمَاتِ المُوكَلة للدَولة ومَع ذَلكِ نَحنُ نَعِيش في بُؤرَة حُكُومَاتٍ عَرَبِيـة لَقِيطـة، رَابِعُهَـا ارتِفَـاعِ مُؤشِراتِ التَكلُسِ التِي ازدَاد مُعدلاتِ الإعَالة والتِي تَزِيدُ خُنقَة على أعبَاءِ الدَولة في تَوفِيرِ خَدمَاتٍ أسَاسِية للمُواطِنِين .. المواطِن العَربِي .. مَذبُوح .. مَذبُوح .. لا مِن الدَولة خَالص ولا مِـن العِيـشَة خَـالِص، خَامِـسُهَا انتِكَـاسِ المُؤسَسَاتِ الحُكُومِيـة عَـن تَقـدِيمِ الخَـدمَاتِ

بِسَبَبِ الحَمِير الـذِين وُضِعُوا على حِسَابَاتِ الـوَطن والمُـواطِن والوَاسِـطَاتِ والمَحسُوبِياتِ وبِسَبَبِ البِيروقراطِية والعَجزِ الـوَظِيفِي وقِلةِ الكَفَـاءة مِمَـا يَجَعـل المُـواطِنِين يَبحَثُـون عَـن مُنَافِقٍ يَعرفُ دَهَالِيز حَرامِية البَلد ووسَطائِهَا لِتـسهِيلِ الحُـصُولِ على بَعـضِ الخَـدمَات، سَادِسُهَا تَفَشِي البَطَالة في وَطنِ المِليونِ عَاطِلٍ عَـن العَمَـل وخَاصَـة بينَ الـشَبَابِ فَالبَـاحِثُونَ عَـن العَمَـل في الـوَطن العَرَبِـي قَـد تَجَـاوَز العَـامِلِينَ والأمـرُ بِازدِيـادٍ مُخِيـف، سَـابِعَاً التَقَـصِير والإهمَـالِ مِـن أدَاءِ المَهَـامِ الوَظِيفِيـة مِن لُـصُوصِ ورُؤسَـاءِ ومَرؤوسِين وهَـذَا مَـا زَاد الطِين بَلـة، ثَامِنَاً دُود الخَـل مِنَا وفِينَا ونَلحَظ بِأنَ غِيابِ الأنظِمَة والتَعلِيمَاتِ التي يَعرِفُهَا أيةِ

حِمَارٍ للجَمهُور وعَدم وَعِيهم بِهَا أو استغبَائِهم لَمضمُونِهَا وعَدم وُجُودِ رَقَابَة مَوثُوقَة يُمكُنُ لأي مُواطِن اللجُوءِ إليهَا، تَاسِعَاً إذا أُسنِد الأمرُ لَغَير أهلِهِ فانتظِر السَاعة .. أي السَاعة قَامت منذُ أن غَابَت الثِقة ونَزَاهَةِ القَضَاءِ وكَذلِكَ إلى تَعقِيدَاتٍ في تَكلُفَةِ التَقَاضِي وعَدمِ الثِقة بأجهِزَةِ الضَبطِ الاجتِمَاعِي..

على هَذِه الأمرَاضِ السراطَانِية يَعيشُ المُجتَمع العَربِي في تَخبُطٍ وَاقِعِي مَرِير، حَيثُ يُعَانِي المُهمَشِين والفُقَراءِ مِن أصحَابِ الكَفَاءاتِ والشَهَادَاتِ ذَاتِ الدَرجَاتِ الشَاهِقة وحَتى الأقلِيَاتِ مِن عَدمِ القُدرة على الوصُولِ لِوَظِيفَة إلا عَن طَرِيقِ وَاسِطَة أو مَحسُوبِية، وهَذِهِ الطَرِيقة لا تَعملُ إلا عَن طَرِيقِ لُقطَاءِ

المُستَقبلِ وفَقط تَأتِي عبرَ الأغنِياءِ والأقوِياء والسِياسِيين مِن مَعَالي العَباءاتِ المُطرزَة والأمعَاءِ المُنتَفِخة ورَبطَاتِ العُنُقِ الجَرباءِ وأصحَابِ النَظَارَاتِ المُمَوّهَة..

مَجَرد حَفَنة حُزن على ذَلِكَ الرَعِيل المُتَفُوق بِالجَدِ والكَدِ والسَهرِ مِن أجل الوصُولِ إلى النُجُوم، ولَكِن عِندَ الانتِهَاءِ مِن مَرَاحِلِ الإعدَادِ ونَهمِ العَلمِ والتَحصِيلِ الأكَادِيمِي، يَخرُج إلى مَزابِل الوَاقِع وإلى مَعركَةِ الحَياة لِيدُور في حَلقة مُفرغة مَبنِية على الفسَادِ الوسَائِطِي وفَسَادِ المَحسُوبِيات، يَعيشُ أو يَمُوت الشُبَانِ أصحَابِ الدَرجَاتِ العُلِيا في كُلِ مَراحِلِ النَجَاحِ في كَابُوسِ الحِرمَانِ والتَهمِيش حَتى يُحَال إلى المَوتِ بِسكَتة دِمَاغِية أو جَلطَة

وَطنِية مُبَاغِتة..

لا تَـدور حَـول نَفـسِكَ يـا صَـدِيقِي أنَـا هُنَـا هـل تَسـمعُنِي.. !

و حَتى يُثبت الحَرامِي وحَامِي حِمى الـوَطن بِأنهُ المُشَرِع الرَسـمِي لاستِئصَالِ مَنَابِعِ الفَسادِ رَاح يُصدِرُ لَنَا مَراسِمِ الإصلاحِ ودَسَاتِيرهُ السَمَاوِية لِيخبِرنَا بِأنهُ المُصلح الـذِي نَحلُمَ بِهِ في يَقَظتِنَا والمَسِيح الذي نَنتظِرهُ منذُ آلافِ السِنِين..

مَظَـاهِر الفَـساد في وَطنِي لا تُعَـد ولا تُحـصَى ولَكِن كمَا قُلتُ لكَ آنِفاً دُود الخَل مِنُا وفِينا..

هَــل سَــمعتَ بِقَــدِيسِ الــسَلامِ ذُو الهَالــة النُورَانِية بِالفَسادِ ابنِ عَم مُجرِمِ الوَطنِ بَشَارِ الأسَـدِ وكَلـبِ الحرَاسَـة الشَخـصِي لـهُ ولِوالـدِهِ

مِن قَبلِهِ.. !!

إنهُ لـواءِ الأجرامِ والفَسَادِ ذُو الهِمة شَـالِيش .. لَعنةَ اللهِ عَلِيهِ وعلى أبِيه وعلى مَن نَصَبهُ لِواءً عَلِينَـا وعلى هَكَـذَا حُكُومَـة فَاسِـدة، إنَ كَلـبَ الحِراسة هَذَا وبَعد أن انتهَت ورَقَتهُ، أرَاد بَشَار الأسَـد أن يُبَـيضَ صَـفحتَهُ أمَـامَ مُحبِيـهِ مِـن مُجـرِمِينَ وقَتَلــة ومَــصَاصِينَ للــدِمَاءِ ومِــن مُطَبِلِـينَ ومُزمِـرِينَ لـهُ في كُـلِ خِطَـابٍ عِـوائِيٍ ..فألقَى القَبضَ على كَلبِه الذِي أمضَى سِنِينَ حَياتَهُ في حِراسِتهِ وحِراسَـةِ أبِيهِ المُجرم بِتُهمَةِ الفَسَاد بَعدَ 20 عَامَاً مِن الخِدمة، لِيحِيلهُ إلى السُجُونِ بِدعَوى اختَلاسَاتٍ مَالِية كَبِيرة، وقَد كُشِفَ رَصِيدَهُ في أحَدِ مَصَارِفِ وبُنُوكِ اللبُنَانِ الشَقِيق الذِي شَق الشَعب السُورِي نِصفِين

بِمبلغٍ وقَدرَهُ: 800 مِليُون دُولار بَس! .. ،

مُجَرد حَفنِة حُزن فَقط .. أنَا هُنَا هل تَسمَعُنِي .. !

فَقَط 800 مَليون دُولا، لا تَبتلِع رِيقَكَ أرجُوك هَـذا مَبلـغ مِـن طَـرفِ جِيبـةِ الـشَعب، رُبمَـا تَتَـسَاءل إذا كَـان حَارِسَـهُ الكَلـب ابـنُ الكَلـب هَكَـذا فَمَـاذا عَـن المُستَـشارِين والـوزراءِ والمُحَـافِظِين ورُؤسَـاءِ البَلـدِياتِ !! .. ومَـاذَا عَـن قَـادةِ الأفـرُعِ المُخَابَراتِيـة وسَاسَـةِ الحَاشَـية المُنَافِقـة مِـن أبنَـاءِ عُمُومَتِـهِ والثَعالـبِ المَـاكِرة مِن أبنَاء خَالتِهِ!! ..

أنَا هُنَا، هَل تَسمَعنِي .. !

حُلُم،

أنَا هُنَا، هَل مَن أحدٍ يَسمعنِي..!

أن تَحلُم هَذَا يَعنِي لا زِلتَ على قَيدِ الوَاقِع، ولا زِلتَ تَتَنفَس، ولا زِالتِ لَدِيكَ أهدَاف، ولا زِلتَ تَتَخَيل، فَقط مَن يَسِير على قَدَمِهِ خَارِج أسرَابِ المُنفَرِدَات لَهُ أحَلامَهُ النَرجِسِية التي يَحدُهَا وَطن مُمَسمَر على حَائِط الكُرَة الأرضِية، ولِأنَنَا شُعُوبٌ تَحلمُ بِقوةِ الخَيالِ الذِي فَاقَ كُلَ أحَلامِ العَالم، فَقد أهدَانَا القَدرُ مُنجمِينَ وفَتَاحِينَ وسَحَرة وحَتى رِجَالِ دِين وأطبَاءٍ نَفسِيين استَبدَلنَاهُم بِالعِلمِ والعُلمَاءِ، يا سَيدِي حَتى الكُتُب اسَأل أيَ جَاهِلٍ عَربِي وأهتمَامَاتِهِ الثَقَافِية بأسَمَاءِ الكُتبِ التَالِية:

هَل تَعرِف كِتَابِ القَانُونِ في الطِبِ لابنِ سِينَا أو كِتَابِ الشِفَاءِ أو كِتَابِ الحَيوان للجَاحِظ أو كِتَـابِ البِيـانِ والتِبيـانِ أو كِتَـابِ الـبُخلاءِ أو مُقَدِمَةِ ابنِ خَلدُون أو كِتَابِ تَارِيخِ دِمشق لابنِ عَسَاكِر !؟

إسألهُ: هَل تَعرف ابنِ سِينَا، أو أبُو بَكرٍ الرَازِي أو العَـالِم المَوسُـوعِي أبُـو الرَيحَـانِ البَيرُونِـي أو الخَـوارِزمِي أو ابـنِ النَفِـيس أو أبـو القَاسِـم الزَهرَاوي !! ؟

يا رَبَاه على هَذِهِ الأسمَاء .. تَخَيل لَقد أضحَوا حُلُمَاً، حَتى عَالمُنُا العَرَبِي وَقَع في هَذَا الدَاءِ ألا وهُوَ دَاءِ الأحلامِ والكَوابِيس، يا الله لَو تَدخُل الآن إلى مَتاجِر الكُتب العَرَبية وتَرى الرُفُوف المَـصفُوفَة بِالأوهَـام، وتُـشَاهِد العَنَـاوِين

الجُنُونِية على مِسَاحَاتِ المُجلدَاتِ:

شَمسِ المَعَارِف الكُبرى، تَفسِير الأحلامِ لابنِ سِينَا، البِيان في عِلمِ الكُوتشِينة والفُنجَان، سِحر بَابِل وسَجَعِ البَلابِل، السِحرِ الأبِيض لِلجَلبِ والمَحبَة والقَبولِ، السِحرِ الحَلالِ في الحِكَمِ والأمثَال، تَسخِير الشَياطِين في وِصَالِ العَاشِقِين، السِحرِ العَجِيب في جَلبِ الحَبِيب، وتَلِيهَا أسمَاء وخُرَافَات وخُزعبَلات تُبَاع للمَرضَى النَفسِيين في العَالمِ العَرَبِي، ولَكِن لِيسَ لهَذِهِ الدَرَجَة مِنَ الغَباء، مَع أنِي أنَا أعلَم لِكونِنَا عَرَب كُلمَا تَقدمَنَا في تَلمِيعِ جَلَادِنَا كُلمَا زَادَ فينَا الغَباءِ وإيمَانِنَا بالشَعوذة..

بِالأمسِ الجَمِيل وقَبل ثَمَانِ سَنُواتٍ وفي نَفسِ المكَان التي وضِعَت على رُفِوفِهِ هَذهِ الكُتب

والخُزعبلاتِ، كَانت تَرقُدُ مَكَانِهَا، كُتب نَجِيب مَحفُــوظ وطَــهَ حُــسِين ومُحَمــد المَــاغُوط وأدونِيس ومَحمُود دَرويش ونِزَار قَبانِي وجُبران خَلِيل جُبران..

و كُل هَذَا الانحطَاط الوَاقِعِي سَببَهُ حُلم .. أو رُبمَا وَهم..

يَقُول العُلمَاء: الحُلم هُو سِلسِلة مِن التَخيلاتِ التي تَحدثُ أثنَاءِ النَومِ، وتَختَلف الأحلام في مَدى تَماسُكِها ومنطقِهَا، وتُوجَد كَثِير مِنَ النَظَرِيات التِي تُفسر حُدُوثِ الأحلامِ..

و كُل أحلامِ الكَونِ في كَفَة وأحلامِ العَرب في كَفة رَضِي الله عَنهُم وأرضَاهُم، اسألنِي كَيف وأين ومَتى يَبدَأ الحُلم عِندنَا ومَتى ينتَهي !! ؟..

الحُلمُ يَبقى حُلم حَتى نَموت، لن يَتغَير شَيء لأننَا في نَومِنَا وفي يَقظَتِنَا نَحلُم، نَحُلمُ بِالتَطور والحَضَارة والرُقِي، نَحلمُ بِأن نَكونَ أصحَابِ كَلمَة وَاحِدة ومَبدأ وَاحِد ورأيٍ وَاحِد، نَحلُم بِأن تَكونَ أرزَاقِنَا لَنَا ومنتوجَنَا لَنَا وأموَالنِا لنَا، نَحلُم بِأن يَعمل عُلمَائِنَا لَنَا وعِلمِنَا لَنَا وإنجَازَاتِنَا لَنَا، نَحُلمُ بِالحُرِية والأمنِ والاستقرَارِ، نَحلُم بِقومِية نَفتَخرُ بِهَا ونَرفَعُ رُؤوسَنَا بِهَا ونُقَاتِلُ ونَموتُ مِن أجَلِهَا..

بَدَءَ الحُلمُ في 22 مَارِس عَامِ 1945 للمِيلاد، لَقد كَانت أحَلامِ الأجدَادِ والآباءِ مَعقُودة في تَأسِيسِ أولِ مَعلَفٍ عَربِي وقَاسِمٍ مُشَترَكٍ بين الدُولِ العَرِبية التِي كَان الأجدَاد يُسَافِرونَ عَبرَ الحُدودِ العَربِية في ذَلِكَ الزَمَان على الجِمَالِ

والخُيولِ مِن غَير تَأشِيرة ولا بِطَاقَة شَخصِية، وقَد بَنَى الأجدَاد أحلامَهُم على أهدَافِ ورُؤى الجَامِعة العَرَبِية التي تَضُمُ أكَابِر اللصُوصِ والحَرَامِية مِن حُكَامِ العَربِ..

أهدَاف .. أحَلام .. أوهَام .. كِذبة.. ،

كُل هَذَا الهُراء يُؤدِي إلى هَذا التَجمُع الوَهمِي الذِي كَرّهَهُم بِبَعضِهم وكَرّهَ الشُعُوب بِبَعضِهَا البَعض، وأكبَر كِذبة قَدمُوهَا لَنَا منذُ تَأسِيسِ صَرحِهِم الذي يَتَجَاذَبونَ بِهِ غَبائِهَم، هِي الوعُود والتَصرِيحَاتِ والمُؤتَمَراتِ والمُؤامَراتِ التي يَعقِدُونَهَا تَبرِيداً لإرَادَةِ الشُعُوبِ في كُلِ قَضِية دَمَوِية، هُنَاكَ وفي الخَفاءِ وقَبلِ عَقدِ مَسرَحِياتِهِم وجُنُونِهِم السِياسِي تُعقَدُ الصَفَقاتِ والاختِلاسَاتِ وحَشوِ الحِسابَاتِ

الشَخَصِية بِأموَالِ الحَرامِ وهَلمُ جَرا، ثُم تَبدَأ الخِطَابَاتِ التَارِيخِية والوعُودِ المُخجِلة، وبينَ كُلِ خِطَابٍ وعِواءٍ تُفتَحُ تَحتَ قُبَةِ الجَامِعة العَربِية وَابِلٌ مِن التَصفِيقِ والتَزمِير والضَجِيجِ، ولَكأنَكَ تَستَمِعُ إلى أحَدِ خِطَابَاتِ صَلاحِ الدِين الأيوبِي أو أحدِ زَمجرَاتِ عُمر بِن عَبدِ العَزِيز، وإن أحبَبتَ أن تَعِيش الحُلم القَومِي المَخنُوقِ بِمشَانِقِ العَمَالة والخِيانة فَسَوفَ تَجِد بِأنَ أهمَ قَضِية ألا وهِيَ قَضِيةِ فَلسطِين أضحَت مُقَبِلات تُضَافُ إلى آخِرِ كَلِمَاتِهم بَعد تَقَسِيم الكَعكَة الاقتِصَادِية، رَحِم الله وَالدِي عِندمَا كَان يَراهُم عَبر شَاشَاتِ التَلفَزة بِأجمَلِ صُورة وأحلاهَا خُبثَاً وغَدراً وحَقَارَةً يَنظُرُ إلِيهِم قَائِلاً:

شَاهَتِ الوجُوه .. فَلقد ابتَاعُوا فِلسطِين

للـصهَايِنة .. واجتَمَعَـوا مَـرة أُخـرى لِيبتَـاعُوا وَطَنَـاً آخَـراً أو يُجَوِعُـوهُ أو لِيرمـوا بِـهِ كَطُعـمٍ لِمَصَالِحِهم الشَخصِية..

أنَا هُنَا هَل تَسمَعُنِي .. أنَا الذِي أتَحدثُ مَعَك مِـن تَحـتِ الظَـلامِ، وجُـودِي هُنَـا كَـانَ سَـبَبهُ حُلــم، حَلمُــتُ بِحُرِيتَـي وحُرِيتِــكِ وبِكَرَامَتِـي وكَرَامَتِــك فَكَتبــتُ ألمِــي وألمَــك فــاتَهمونِي واعتَقَلـونِي وأنـتَ لا زِلـتَ تَحسبُ نَفسَك حُـراً على أرضٍ تَظُنهَـا أَرضَـك ووَطـنٍ تَعتَقِـد أنَـهُ وَطنَك، كَانَ عِندِي سُؤالٍ صَغَيرٍ لَك..

أنتَ بِمَاذَا تَحلُم !؟.

و لأنَنَا أُمَة تُؤمِنُ بِالَشعوَذة والخُرافَاتِ وصَارَ لِزَامَاً عَلِينَا أن نَـضَعَ على جَبِينِ كُلِ مُـواطِنٍ عَربِي خَـرزَة زَرقَـاء ونُبَخِرهُ مِن بينِ قَدَميهِ إلى

حِباله الصَوتِية، هَل تَعرِف لمَاذَا ؟..

لَأن كُـل حُلـمِ شُـبَانِنا أن يُـصبِحُوا مُطـرِبين، تَحِيـة إلى البَرامِجِ الإبدَاعِيـة التي خَرَجَـت لَنَـا المُخَنَثِين والمَائِعِين والمُتَلـوِنِين، تَحِيـة إلى بَرامِجٍ فَـضَائِية أخرَجَـت لَنَـا الرَاقِـصِين والرَاقِـصاتِ والمُتحوِلِين والمُتَحوِلاتِ بِمنَاظِرٍ مُقرِفة لم نَعتد عَلِيهَا البَتَة، وأنَا أعتَقِد بِأنَ هَذِهِ البَرامِج الذِي يَجمَـع بَعـضٍ مِـن لِجَـانِ التَحكِـيم الفَاشِـلين كـــآرب تَالنـــت، وآرب أيـــدول، وذا فُـــويس، سَتُـستَبدل قَرِيبـاً بِجَامِعَـةِ الـدُولِ العَرَبِيـة، لِتَـشكِيلِ جَيـشَاً لِتَحرِيـري فِلـسَطِين وإعمَـارِ لُبنَـانِ وإطعَـامِ الـصُومَالِ واسـتقلالِ سُـورِيا والعِـراقِ، تَخَيـل جَيـشَاً مِـن المُطـرِبِين لِتحَرِيـرِ العِبـادِ مِـنَ الظُلـم بِقِيـادة رُوبي وهَيفـاء وِهبِي

ونَانسِي عَجرم وشِيرين عَبد الوَهَاب مُدجَجِينَ بِطَاقمٍ مِنَ آلاتِ التَصوِيرِ ومُكَبِراتِ الصَوتِ وعلى رؤوسِهِنّ المَلِكَة أحَلام..

يا حَبِيبي يا اللحَم المُغطَسِ بالسِيلِيكون والميك آب، لا تَعلم هُو لَحم حَرام حَلال لا يُهُم، ولَكن إن لَم تَستَحِي فاصنَع مَا شئت، وإلى الآن أنا في حِيرة هَل كَانت أحَلامِ هَذهِ الفَلتَانَات هُي عَرضِ لِأصوَاتَهِنَ أو أجسَادَهِنّ، مَع أنَنِي أجزُم 100% بِأنَ أصواتَهُنَ لا تُسَاوي خَمسَةِ دَقائِقِ مِن صَوتِ العِملاقَة العَظِيمة التي غَنتَ لأحلامِنَا القَومِية السِيدة العَظِيمة فَيروز التي أعرَت لَنَا صَوتَهَا وأبتَ أن تَتَعرى أمَامَ شَراهَةِ الكَمِيراتِ، لأنَهَا عَلمَت بِأنَ العُري أمَام عَظَمة الغِنَاء يُبطِلُ طَهَارة الصَوت،

تَحِيـة إلى كَوكَـب الـشَرقِ وعَلـمٍ مِـن أعَـلامِ الـصُوتِ والحَلـمِ العَربِـي التي أهـدَت صَـوتَهَا للوَطنِ والشَعب فَأطربتَ القُلوب قُوة وعِزة في زَمنٍ كُنَا فِيهِ أقَوى مِن أي زَمنٍ مَضى..

أنَا هُنَا، هَل تَسمَعنِي .. !

نَزَاهَة،

أنَا هُنَا، هَل مَن أحدٍ يَسمعَنِي.. !

و لأنَنِي في بَلدٍ قَائِمٍ على العَدل والمُسَاوَاة كَمَا يُؤكِد دَائِمَاً فَأرِ التَجَارب في مُختَبَرَاتِ النِظَامِ السُورِي بَشَار الجَعفَري، وكَمَا يَحرصُ على تَمسِيحِ أقنِعَةِ النِظَامِ السُورِي وجَرائِمَهُ تَحتَ خِيامِ مُنَظمَاتِ الأُمَمِ المُتَحَدة، فِإنَنِي أقِفُ في مُنفَرِدَاتِ النِظَامِ السُوري لأقَول ولأُصدِرَ مَرسُومَاً على قَيدِ هَذَا الكَهفِ الذِي لا يَكفِينِي أنَا وَحدِي وبِتَوقِيتِ الظَلامِ الدَامِسِ الذِي اختَفت عَقَارِبَهُ منذُ دُخُولي إلى هَذَا المُنزَلق الصَعب، المَرسُوم الذِي سَأذكُرَهُ يَتَضَمن كَلمَة وَاحِدة لأشُدَ عَضُدَ المَبعُوثِ السُورِي وسَيدَ

النَهِيق المُخضرَم سِياسياً ونَجَاسِياً أبو أرَبعة وأربَعِين لِسَان، وأبو ألف قِنَاعٍ وقِنَاع، صَاحبِ الأوسِمَة المُتَلونة والشَهَادَاتِ المُزورَة سَيد الخُبثَاء الذِي كَرهتُهُ على مَدَى العُصُور والسِنِين بشَار الجَعفَري..

المَرسُوم مُتَعلق بِالنَزَاهَة والكَراهِية فَقط، رُبمَا سَوفَ تَسخر مِن جُنِوني الانفِرادِي، وتَقُول في ذَاتِكَ إنهَبل الرَجُل، يَا سِيدي ولتَقُل مَا تَشَاء، ومَا ضَرَنِي إن سَخِرت وإن لم تَسخَر، إنَ هَذهِ القُبور المَحشُوة بِالأحيَاء تَجعلُ مِنكَ مُفَكِراً ومُتَسابِقَاً مُفتَرساً للزَمَن، تَخَيل بأن تَأخُذَ مَكَانِي وتَجلس في هَذِهِ الظُلمَة القَاتِلة لجَميعِ حَواسِكَ، يا هَل تُرى بِمَاذَا سَتُفَكر!، يَعنِي سَوفَ يَكون جُلُ تَفكِيركَ بقِيامِ السَاعة ومَتى

سَـوفَ يُطلـق سَـراحَكَ مَـثَلاً ؟، أو سَـوفَ تَعُـود إلى المَاضِـي لتِتَـسلى بِأورَاقِـهِ التي لـن تَعُـود بِالأصل.. !

لا عَلِينَا، لا يُهمُنِي بِمَا سَتنسِجُ في قَعرِ خَيالِكَ، وأنـتَ لـن تَهـتَم بِأفكَـاري الانـشِطارِية، أُعيـد وأكرر لا عَلِينَا..

لا أعَلم مِن أين أبدَأُ لَكَ عَمَا يَدُور في أحضَانِ النَزَاهَة في عَالمِنَا العَربِي، وفَقَط في سُوريا تَجد النَزَاهـة في حَلبَـة الثِيران التِي تَطمَـح للوصُـولِ إلى مَعَـالِفِ الرِئَاسَـة، وطَبعَـاً المُصَارِع الوَحِيد في هَـذَا الـسِباق الخَبِيث هُـو ثَـورٌ وَاحـدٌ فَقـط يُدَعى بَشَار الأسَـد، فَلقَـد وَرِث هَـذَا الغَبـاء عَـن وَالِـدِهِ الأكثرِ غَبـاءً مِنه، والنتَائِجِ المُتَوقَعة تَأتِي بجَمِيـع أمـوَاتِ وأحيَـاءِ ومُعَـاقِينِ ومَـشلولِين

ومَجَانِينِ وأصَواتِ وحَتى الصُم والعُمي والبُكم لِوَضعِ بَصمَتِهم في صَنَادِيقِ الاقتِراعِ بانتِخَاب رَئِيسٍ للجَمَهُورِية العَربِية السُورِية الاشتِراكِية، تَخَيل هَذَا الغَبَاء وإلى أي حَد وَصَل في استهتَارِ العُقُول، وحَتى لَو كُنتَ على فِراشِ المَوتِ أو في العِنَاية المُركَزة فَعَلِيكَ أن تُدلِي بِصَوتِكَ لتُثبِتَ ولائِكَ للسِيدِ القَائِد، عِندَ انطلاقِ أولِ سَاعَاتِ للانتِخَابِ تَرى أمَواجِ المُنَافِقِين والمُنَافِقَاتِ أصحَابِ الأقنِعة الوَطَنِية يَتهَافَتُونَ كَالخِرافِ المُفعَمَة بِحُبِ ظِلِ سِيادَتِهِ وصَاحِبِ الأحلامِ القَومِية الذِي عَقَد الشَعبُ إيمَانهُ ووَلائَهُ وحُبَهُ وعِشقَهُ وحَتى حَياتَهُ ومَوتَهُ ومَأكَلَهُ ومَشرَبَهُ في صُورَة طَبِيبِ العُيونِ، الدِكتَاتُورِ ابنِ الدِكتَاتُورِ، والسَفَاحِ ابنِ

السَفَاحِ، أحلام الأوهَامِ والكَذِبِ على الذَاتِ والأنفُسِ، استَيقَظَ جُبنَاءِ الشَعبِ لِيُؤكِدوا على قَائِدِ مَسِيرَتِهِم بِأنهَم سوف يَبقوا لَهُ دَجَاجَاتٍ غَبِيَاتٍ مُنسَاقَاتٍ إلى طَاعَتِهِ وعِبادتِهِ، أنهَا النَزَاهَة التي ارتَوت مِن يَنَابِيعِ الرُعب، كَم كُنتُ أتمنَى يا عَزِيزِي لَو كُنتَ حَاضِراً ولَو مَرحَلة انتِخَابِية وَاحِدة، لِتَشهد الوجُوهِ المُنَافِقة المَصفَرة في ابتِسَامَتِهَا الجَافَة في طَرِيقَةِ هُتَافِهَا..

ولَكِن جُنُونِ الشَعبِ يَفُوقُ تَصُورِكَ، عِندمَا يَنتَظِرُون انتِهَاءِ الانتِخَاباتِ التي قَامت على نَزَاهَة مُطلَقة، في انتِهَاءِ مَسرَحِيةِ السُخرِية الوَطنِية، تَجد جَمِيعَ أفرَادِ الشَعبِ مَشدُودِينَ النَظَرَاتِ إلى شَاشَاتِ التَلفَزَة، يَنتَظِرونَ بِفَارِغِ

الصَبرِ النَاطِق الرَسمِي باسِم القَصرِ الرِئَاسِي القَرارِ النِهَائِي للانتِخَابَاتِ، ..

يَخرُج فَجأة أبُو الهُول عَبرَ شَاشَةِ الفَضَائِيتِين السُورِيَتِين الأُولى والثَانِية:

أصَدر القَاضِي العَام في سُورِيا قَراراً بَعَدَ الانتِهَاءِ مِن حَصدِ الأصوَاتِ بِتعِيين الدِكتُور بَشَارِ الأسَدِ رَئِيسَاً للجَمهُورِية العَرَبِية السُورِية، بَعدمَا بَلغَ عَدَدِ الأصَواتِ 99، 99 %

طَبَعَاً هَذا الشَخص الذِي لم يَنتَخبَهُ .. أَكل هَواء..

و تَبدَأ مَشَاهِد النِفَاق والسُخرِية والكَذِب تُذرَف مِن العُيونِ على شَاكِلةِ دُموعِ فَرحٍ وابتِهَاج، ويُطلق الرَصَاص في الهَواءِ الطَلَقِ

سُروراً بالخَبرِ المُفجع بالنِسَبة لي، ولو أردنَا أن نُحصِي الذَخَائِر التي أُرِيقَت على أرضِ هَذَا الخَبر لَحُرّرَت الجَولان وفِلسطِين، ولَكنِ للنِفَاقِ بَهجَة وهَكَذا عَودَنَا الأجَدَادُ لِنَحتَفِي بِهَا ونُصَفِقَ ونَزعَقَ ونَهتُفَ لِجَلادِنَا..

هَذِهِ هِيَ النَزَاهَة العَرَبِية، كُلَ شَيءِ وِرَاثَة وكُل مَنصِبٍ لَهُ ثَمن، إنهُ ثَمن حُرِيتِنَا وكَرَامَتنَا وشَرفِنَا..

و مِن هَذا الثُقب الذِي أطوي بِهِ ألمِي وُلِدَ شَيء اسمُهُ الكَرَاهِية العَمياء، كَيفَ أصِفُ لَكَ كَلمة الكَرَاهِية. !!

خُذ مِثَالاً مِن العَائِلة المُحتَلة للأرَاضِي السُورِية:

المُجرم حَافِظ الأسَد .. إستَلمَ رِئَاسَةِ البِلادِ على جِبالٍ مِن جَمَاجِمِ السُورِيين، وأنِيسة مَخلُوف زَوجَة مُجرم ولَكِنَهَا المُدَبِر الكَونِي الخَفِي لِكُلِ هَذِهِ الإنجَازَاتِ الدَمَوِية، بُشرى الأسَد مُتَزوِجة لِأحَد أكَبرِ سَفَاحٍ مُخَابَرَاتِي ونَائِبِ رَئِيسِ هَيئَةِ أركَانِ الجَيشِ والرَئِيسِ السَابِقِ لإدَارَةِ المُخَابَرَاتِ العَسكَرِية المُجرم الجَمِيل آصِف شَوكَت، بَاسِل الأسَد الفَارِس الشَاب الذِي رَضِعَ مِن مَنَابعَ الظُلم وكَانَ يُلمّع في كُلِ المَحَافِلِ الرَسمِية والدوَلِية لأنهُ في قُلوبِ الشَعبِ الجَبانِ وقَلبِ العَائِلة المُحتَلة يَصلحُ أن يَكونَ خَلِيفة لِوالِدهِ الحَقِير مَصاصِ الدِمَاءِ حَافظ الأسدَ، بَشَارِ الأسَد هَذه اللعَنة التي سُلطَت على الوَطن وتِلكَ الأيادِي المُلطَخَة

بِالدِمَاء صَاحِبِ نِصفِ لِسَان الذِي فَاقَ أبَاهُ في السَطوِ والسَرِقة والذَبحِ والنَهبِ، مَجد الأسَد عِبَارة عَن جَسَد بِلا عَقَل والأغرَب مِن ذَلِكَ كُلهِ بِأنهُ حَاصِل على شَهَادة في الهَندَسة الكَهرُبَائِية، السُؤال لهَذِا الدِكتُور الحِمار الذِي أعطَاهُ شَهَادة هَندَسِية !! وكَم مِن مَنصِبٍ حَظِي بَعد تَرفِيع هَيكَل بِلا عَقل !!، مَاهِر الأسَد الثَعلب المُتَنكِر على هَيئَة قَائِدٍ للحَرسِ الثَوري هَذَا السَاقِط إنسَانِياً، ومُجرم حَرب بُكلِ مَا تَعنِيه الكَلِمَة مِن إجرَام وقَائِد الفِرقَة المُدَرَعة الرَابِعة كَمَا أنَهُ أحَدِ ثَعَالِبِ القِيادة المَركَزِية لِحزبِ القَتلِ البَعثِي وهَذَا الثَور فيه مِيزة عِدوانِية شَرسَة وانفِلاتٍ في القَتلِ رَهِيب جِداً كَمَا أن الحُثَالة الذِين حَولهُ

قَـالوا عَنـهُ أنَ لـهُ شَخـصِية عِدوانِيـة لا يُمكِـن السِيطَرة عَلِيهَا..

عَائِلة نَازِية بِاحتَرافِ الجِينَاتِ والنُطفِ المَبنِية على الحَـرامِ، عَائِلـة تَـستَحق جَـائِزةِ الأوسـكَار على الإنجَازَاتِ المُرعِبة التِي شَلت حَركَة البِلادِ منـذُ خَمـسِينَ سَـنة، الكُل يَستَحِق الـشُكر مِن مُخـرج ومُنـتِج وكَاتِـب وأبطَـالٍ كَـانوا يُـدعَونَ بِعَائِلـةِ الجَحـشِ ولكَـن دَورَهُـم البُطُولِي رَفَعَهُـم مِـن قُطَعـانٍ مِـن الجحَـاش إلى مُلـوكٍ وأسُـودٍ دَامِية..

هَذِهِ العَائِلة ذَاتِ الطَبقَة التَأسِيسِية في صُنعِ الإرهَـابِ في الـشَرقِ الأوسَـط، فَأنَـا لـم أُحـدِثكَ عَــن جَمِيــل الأسَــد ورِفَعــت الأسَــد وعَائِلــةِ شَـاليش وأحمَـدِ الأسَـد وإبرَاهِيم الأسَـد وعَائِلـةِ

مَخلُـوف، سِلـسِلة مُتنَاغِمـة بالإرهَـابِ والـذُعرِ والقَتلِ والنَفِي، آلافٍ مُؤلَفة مِن السُورِيين لا أحَد يعرِفُ عَنهُم شَيء في أعنَاقِ هَؤلاءِ القَتَلة، ولا أحَد يَجرُؤ أن يَسألَ عَنهُم..

هَـؤلاءِ والنَزَاهـة والكُـرهِ أجنَـاسٍ مُتنَـافِرة لا يُعقَـل أن تَجتَمـع إلّا بِـشَرطٍ وَاحـد، إذا تَوحَـد الزَيتُ بِالمَاء فَرُبمَا تَزول النَزَاهة لِتَحل مَكَانَهَا الكَراهِية..

أنَا هُنَا، هَل تَسمَعنِي ..!

تَطَرُف..

أنَا هُنَا، هَل مَن أحدٍ يَسمعَنِي.. !

هَـل مَللـتَ مِـن حَـدِيثِي مَعـك !، سَـامحنِي أرجُـوك، أُرِيـد أن أتَكَلـم قَبـلَ نَفَـاذِ قِـواي الجَسَدِية والعَقلِيـة، أرجُـوك لا تَـذهَب، أرِيـد التَحـدُثَ مَعـك، حَسنَاً أنَـا أعلـم بِـأنَنِي مُقـرِف وأحَـادِيثِي مُمِلـة واسـتفزَازِية، ولكِـن لا مَفـر مِن إخراجِ هَذهِ الآلام التي تَكوي جَوفِي، لَقد قَالوا بِأنَ السِجن للرِجَال، ولَكِن هَل بَقِي رِجَال هُنَا يا تُرى.. !!

لَقـد أفلـتَ الـسَجَانُونَ طَـاقَتِهِم الجنـسِية على السُجَنَاء، حَتى أضحَت أجسَادِ مَن مَروا تَحت شَراشِـفِ الأقبِيـة والمُنفَـرِدَاتِ وَجبَـاتٍ دَسِـمَة

للبَغَـاء ومُمَارَسِـةِ الرَذِليـة، لا أعَلـم مَـا نَـوع الأدوِيـة التي يَلتَهِمُهَـا هَـؤلاءِ الجُبنَـاءِ وكَيـفَ عِندَهُم هَذِهِ الشُعَلة الجِنسِية لمُمَارَسَةِ أبشَعِ الجَرائِمِ بِحقِ الإنسَان، بِتُّ أشكُ بِأنهُم مِن بنِي البَشر..

لَقـد قَـالَ بَعـضِ المُتَفلـسِفِين بِـأنَ التَطـرُف نُسَخة عَنِ الإرهَاب، وكِلاهُمَا لِيس لَهُمَا دِين، فَلِكَونِي أحدِ نُزلاءِ المُعتَقلاتِ السُورِية أدعُوهم لِزِيارَة هذَا المُنتَجع الدَموي الذِي يَتقَاطرُ مِنهُ الجِنس بِأشكَالهِ الخُلبِية، وأنَا بِاعتِقَادِي بِأنَ تَصنِيفِ الجَوائِز العَالمِية والدُروعِ الإنسَانِية والـــشَهَادَاتِ التَقدِيريـــة يَجـــب أن تُـــوزَع بِالتَسَاوي لأنَاقِةِ الأمكِنة ودُروعٍ لمَاعَة، وإبدَاعِ المُتَمِيزِين وأوسِمَة شَعشَاعة، وتَفوُّقِ المُمَثِلين

والمُخرِجِين والكُتَابِ والأُدَبَاءِ وجَوائِز في نُوبِل والأُوسكَارِ، فإنَنِي أُطَالب مُجرِمِي العَالم والطَواغِيت القَابِضِين بِخِنَاقِ الشُعُوب مِمن رَحَلَ مِنهُم ومَن بَقِي على قَيدِ الذَبحِ والسَلخِ على مَرمَى شَاشَة ضَوئِية مِن الإنسَانِية، أن يَصنَعُوا دُروعَاً إجرَامِية وأوسِمَة كُتِبَ عَلِيهَا: ابن حَرام، لِتَصنِيفِ أفَضَل طَاغِية في آخِرِ كُلِ عَام، وتَقَلِيد هَذِهِ الدُروع لأفَضَلِ سَجَان وأروَعِ سِجنٍ عَالمِي، وأتمَنَى أن تَكُون اللجَان مِمن ذَاقَ حَلاوَة المُعتَقَلاتِ ومِمن تَلقَحَ جِينِياً وجِنسِياً، أُرشِحُ فِيهَا جَمِيع المُعتَقَلاتِ العَرَبِية وبِالأخصِ المُعتَقلاتِ السُورِية التي دَخلنَاهَا عِنوةَ عَن أبونَا وأبو أبونَا، التِي تَطبعنَا بِهَا وانسِجَامنَا المُطَلق بِهَا ولِظُلمِهَا كدنَا نَقول

لِجلادِنَا أرجُوك لا نُرِيد الخُروج مِنهَا، ولِرُقي المُتطَلبَات المُستَفحِلة والقِيم التي بِحِياتِكَ لم تَرهَا موجُودَة في أقبِيتِهَا وبِين زِنزَانَاتِهَا..

و لِأنَنِي أنَا هُنَا سَأرسِلُ رَسَائِلَ وبَرقِيات حَثٍ لِتَعلُّمِ كَيفِيةِ القَمعِ والذَبحِ والظُلمِ تَكون تَحتَ الصَمتِ العَالمِي الجَبان، أولُ بَرقِية أُرسِلهَا مِن مَكتَبِي الانفِرادِي وخَلفَ مَكتَبِي المُلطَخ بِالظَلامِ وأنَا جَالس للهَواءِ الطَلق على كَراسِي قَدَمِي، إلى سِجنِ بَانغ كَونَغ القَائِمِ على تُرابِ العَزِيزَة الفَاضِلة دَولة تَايلانَد الشَقِيقَة في الحَقدِ والتَطرُف والذَبحِ للحُرِيات، يُقَال بِأنَ هَذَا السِجن المُلقَب بِسجنِ هِيلتُون بانكُوك صَاحبِ الصِيتِ الحَسَن والرُوتِين المُمَنهَجِ بالذَبحِ والتَعذِيب حَيثُ تَتَم في

أحشَائِهِ مُمَارَسَاتٍ غَيرِ لائِقة بِحَقِ المُعتَقَلِين مِن تَكدِيسٍ للنُزَلاءِ في زنزَانَاتٍ ضَيقة يَصعبُ على الهَواء دُخولهَا .. وهَل هَذا يُعَد تَعذِيباً في رَأيكَ !، تَعَالوا .. تَعالوا وتَعلّموا مِن إخوَانكُم السَجَانُين السُورِيين مِن أتبَاعِ النِظَامِ الحَاكم والمُرتَزِقة كَيفَ يَكون التَعذِيب..

إلى سِجنِ سَان كُوينتِن، الذِي يَقَعُ في وِلايَةِ كاليفِورنِيا في مَواطِن الحُرِية والدِيمُقرَاطِية في الوِلايَاتِ المُمَزَقَة الأمرِيكِية، صَاحِبة أفضَلِ وأجَملِ حُنجَرة حَضَارِية، وصَاحِبَةِ ألفِ لسَانٍ ولِسَان ومِليونِ قِنَاعٍ وقِنَاع، المُنافِقِ الأوحَد على هَذَا الكَوكب، فهُنَاك وعلى مَرمَى أمتَارٍ مِن هَذِهِ الوِلايَة المُتَبجِحة في فُضُولهَا يَجثُمُ ذَلِكَ الصَرح العُنصُري بِأقفَاصِ سَجَانِيهِ،

وعلى الـرَغمِ مِن احتوائِهِ غُـرَفٍ للغَـازِ القَاتِل، إلا أنَ جَمِيــعِ عَمَلِيــاتِ الإعــدَامِ فِيــه تَــتَم باســتخدَامِ الحُقَــنِ الــسَامَة، ولِكــونِ هَــذَا الـسِجن نَـشَأَ في مَخَـابِئِ بِلادِ الحُرِيـة والغُـرورِ فَقـد شَـهِد في عَـامِ 2006 مِيلادِي العَدِيـد مِـن أحدَاثِ العُنفِ كَان آخرَهَا حَسَبِ إحصَائِياتِهَم وقُــوعِ 100 جَــرِيحٍ وقَتــلِ سَــجينِين لأســبَابٍ عُنـصُرِية .. جَمِيـل .. برَافُـوا أحبَتِي الأمرِيكَان، أتَمنى أن تُـشَرِفونَا إلى الفَنَـادِق الانفِرادِيـة في سِجنِ صِيدَنَايا لمُشَاهَدَةِ نَفسِ المَشَاهِد ونَفسِ القَاتِل، ولِكـن المَقتُـولِ هُنَـا كَانَـت تُهمَتَـهُ بِأنَـهُ لَـيسَ مِـن طَائِفَـةِ عَائِلـة الحَرامِيـة التي تَحكُـم البَلد..

إلى سِجنِ لاسَانت الفَرنسِي، الذِي اتَخَذَ مَكَانَهُ

وقُضبَانهُ في عَاصِمَةِ التَحرُرِ على مِزَاجِ المُوضَة والعُطُورِ، العَاصِمة ذَات الرَوائِحِ الضَبابِية، سُؤالٍ لَهَا ولِسَاكِنِهَا كَم مِن قَارُورة عِطرٍ تَكفِيكم لِتَرمِيمِ رَوائِحِ الجَرائِمِ التي ارتَكبتُموهَا بِحقِ الجَزائِريين يا صُنّاع الدم والإجرَام ! .. لا عَلِينَا أيتهُا العَاصِمة المُثيرة، مَاذا عَن سِجنِ لاسَانت صَاحِبِ الرَوائِحِ العُنصُرِية المَشهُورِ بِأسوأ سِجنٍ في العَالم ؟، في هَذا السَجن بِالذَات كُل يَوم يَشهدُ نُزلاؤه العَدِيد مِن عَمليَاتِ الانتِحَار دَاخِلهِ بِسَبَبِ الظُروفِ السَيئِة التي يقطُنُهَا القَابِعُونَ تحَتَ مَخالبِهَا .. لا تَبكِي بارِيس .. في سُجُونِنَا لا أحَد يَنتَحر لأنَ مَن دَخَلهَا سَيُنحَر كالنِعَاجِ ويُلقَى جُثة هَامِدة كَالكِلاب، لا تَقلقِي بارِيس هُنَا دِمشق فَاقت

عَلِيكِ إجرامَاً وحَرامَاً

إلى سِجنِ كَارانِديرو، ولَكن أين هَذِهِ المَرة، إنهُ السِجن الوَسِيم والمُدَلِلِ لَدى الحُكُومَة البَرازِيلِية كَفَانَا الله شَرهَا وشَرِ أمثَالهَا، كَمَا أنَ البَرَازِيل صَدرَت للعَالم الذَهب الأسُود صَاحِبة المَذاقِ المُرِ المَعَروف بِالقَهوة، وكَذلِكَ أتَحفَت الكَون بِسجنِهَا المَركَزِي الأول الذِي يَحتَل لائِحَةِ أسوأ السَجُون في العَالم، وآخِر إنجَازَاتِهِ تِلكَ المَجزرة التي حَدَثَت في عَامِ 1992 مِيلادِي ورَاح ضَحيتهَا إلى مَقتَلِ 102 مُعتَقَل بِأيادي السَجَانِين، والإنجَاز الأروع بِأنَ هَذهِ البؤرة المُلوَثَة بالمَشَاكِلِ الصِحِية، حَيثُ يَتَميّز بَين كُل خَمسَة سُجَناء سَجِين وَاحِد مُصَاب بِفَيروسِ نَقصِ المنَاعَة ألا وهُو آخرِ الأحلامِ الجِنسِية:

الإيدز.. وللعِلم بِأن شَرهِ السَجَانِين جِنسِياً والمَعلوفِين في حَضائِرِ النِظَامِ السُورِي، يَقتُلونَ السَجِين قَبل ظُهُورِ أيةِ أعراضٍ مَرضِية لَموتَ النَزِيل بِسرهِ المُغتَصب، تَعالوا أيُهَا البَرازِيليونَ وتَعلموا كَيف يَتم القَضاءِ على المَرضِ والمَرِيضِ بِكُلِ بَراعَة ودِقة..

إلى سِجنِ جِيتَارَامَا الذِي لُقبَ ب: جَهنَم على الأرض،

السُؤال: هَل هُنَاك جَهنم في السَمَاء مَثلا !، آسِف أنَا أمزَح، يَقَع هَذَا المُعتقَل في رواندا، وعلى الرَغم بِأنهُ جُهِزَ لإستِعَابِ 500 سَجِين، إلا أنهُ اليَوم يَطوي تَحتَ نَارهِ 6000 سَجِين، حَيثُ يُجَبرُ الجَمِيع على قَضاءِ إقَامَتِهم وقُوفَاً، مما يُؤدِي ذَلِكَ إلى الإصَابة بالالتِهَابَاتِ

والـتَعفُنِ في أرجُلِهـم، لِتَعَـرض مُعظَمَهُـم بِبتَر أطَـرافِهم إنقَـاذاً لِحِيـاتِهم .. أنَـا عَتبَـان عَلى حُكـومَتِهم ايـه والله ! .. لَـيسَ مِـن أجـلِ بَتـرِ أطرَافِهم المُلتَهِبة، بِل مِن أجلِ العَدَدِ الهَائِل الذِي لم أجرؤ على تَخيلهُ إلى الآن ولم يَدخُل إلى خَلايَا دِمَاغِي فَكِيف بِمسَاحَتِهِ المَحدُودة لاسـتقَبالِ 500 سَـجِين .. أنـا أقُـول لـرِئيسِ رواندا أن يأخُذَ دَوراتٍ بِتخفِيفِ هَذهِ الكَارِثة مِن المُجرم حَافِظَ الأسَد، لا رَحمهُ الله لا هُوَ ولا مَن يَترحَم عَلِيه، في عَامِ 1980 مِيلادِي عِندمَا نَجَا السَفَاح وراعِي الإجرامِ حَافَظَ الأسَـدِ مِـن عَمَلِيـةِ اغتِـالٍ، أمَـرَ شَـبِيحَتَهُ المُجرِمُونَ بإعدَامِ جَمِيعِ السُجَنَاءِ في سِجنِ تَدمُر السُورِي لِينتَقِم مِن مُعَارِضِيهِ، لم يَنتَقم

مِن مُعَارِضِيهِ وحَسَب بَل مِن جَمِيعِ الإنسَانِية وجُبنِ العَالم الأحمَق، هَكذا يُصنع التَطرُفِ والأحقَادِ ونَشرِ الرذِيلة والكَراهِية في أحشَاءِ السُجُونِ العَرَبِية عَامَة وفي الكُهُوفِ السُورِية خَاصة..

أنَا هُنَا، هَل تَسمَعنِي ..!

سِيجَارة،

أنَا هُنَا، هَل مَن أحدٍ يَسمعنِي.. !

إن كُنتَ لا زِلتَ تَسمَعَنِي فَهَذا أمر رَائِع، هَل لِي بِأن أسألكَ سُؤَالاً فُضُولِياً !، هَا .. مَاذَا قُلت ؟

حَسَناً، مَا نوعِ السَجَائِر التِي تَلتَهمهَا.. !

أعلم بِأنَنِي مُتَطفِل، ولَكن أشتَاق لابتِلاعِ شَيَئَاً مِن نَوعِ السِجَائِرِ التي تَتَمتع بِهَا، نَعم آخر سِيجَارة قَضَيتُ عَلِيهَا قَبلَ اعتِقَالي بِثَلاثِ سَاعَاتٍ، كَانت لَذِيذة جِداً، فالسِيجَارة كَانَت صَدِيقَتِي التي أتقَاسَمُ مَعَهَا وحدَتِي وألمِي وشَهوتِي ورَغبَتِي بَعدَ كُل حُزنٍ وقَبل أي فَرحٍ، وكُنتُ أُخبِئُهَا بينَ أشيائِي لَيسَ خَوفَاً مِن مَضَارِهَا لا والله، بَل كَمَا جَرت العَادَة بينَ

النَاسِ احتِرامَاً لِوالدَي، ومَع عِلمِي بِأنَ وَالدِي كَانَ يَعلم بِمَا أبتَلِعَهُ مِن مَضَارٍ جَسَدِية على شَابِهَةِ كُتَل دُخَانِية، فَلقَد كُنتُ أستَجِي مِنهُ بَعدَ مَجِيئِي مِنَ الجَامِعَة ورَائِحَتِي مُبَخرَة بعَفنِ السَجَائِر، شَيئَانِ كُنتُ أعَلمُ بِضَرِرِهِمَا وشَيئَانِ لا استَطِيع تَركَهُمَا وشَيئَانِ كَانَا ولا زَالا هُما بُغيَتِي ونَهَمي ومَعصِيتِي..

السَجَائِرِ والسِياسة..

كِلاهُمَا مُضرانِ للصِحة النَفسِية والجَسَدِية، وكِلاهُمَا يَنفعَانِ لِلقصَبة التنَفّسِية، الوَاقِع وَحدَهُ مَن يَجعلُكَ تُلملمُ أفكَارِكَ وعَافِيتكَ والجَرِي خَلفَهُمَا، السَجَائِر والسِياسَة، في الأولى حَربٌ صِحِية والثَانِية مَعرَكة نَفسِية، ولا غِنى لَكَ عَن الأولى إن وُجدَت الثَانِية، لِكُلِ

إنـسَان حِكَايتَـهُ وبِدَايَتَـهُ ورُبمَـا نِهَايَتَـهُ مَـع السَجَائِر، هُنَـاك مَـن عَـاشَ مَعهَـا وهُنَـاكَ مَـن مَـات لَهَـا وهُنَـاكَ مَـن وَصَـل إلى مُبتَغَـاهُ بِهَـا وهُنَـاك مَـن أوصَـلتهُ إلى حُبـهِ وهَنَـاك مَـن تَقَاسَـمت مَعـهُ كَربَـهُ وهُنَـاك مَـن قَاسَـمتهُ وحدَتـهُ وهُنَـاكَ مَـن لمَلمـت شَـملهُ وهُنَـاك مَـن فَرقَـت جَمعـهُ وهُنَـاك مَـن قَـضَى بِهَـا نَحبَـهُ وهُنَـاك سَـابقٌ بِالخيراتِ وهُنَـاكَ مَن يَنتَظرِ ومَا بَدَلـوا تَبدِيلا..

و لِكُـلٍ مِنَـا أسـبَابهُ ومُـسبِبَاتهُ فـي أعمَـارِهِ وانحطَاطِهِ في كَيفِيةِ تَعَاطِيهِ مَعَها، وللسَجَائِر مَآربُ أُخرى للإيذاءِ أو للأمَانِ، هُنَـاكَ سَجَائِر مَحـشُوة بِالحُـبِ أو بِـالبُغضِ أو تَعبِيـراً عـنِ السَعَادَة أو التَعَاسَة أو إنقَاذَاً لِحَياةِ أنفُسٍ أو

القَضاءِ عَلِيهَا..

و لَهَا عِدَةِ أدَوارٍ تَارِيخِية وسِياسِية وفَنِية، ولَهَا أبعَادٍ دَرامِية أو شَعائرِية أو طَائِفِية..

نَعم طَائِفِية، لا تَقُل لِي كَيف أو أين أو مَتى.. !!

خُذ مِثَالاً عَنِ الطَائِفة السِيخِية، تُعَمَد السَجَائِر بالحَشِيش وبَعدَهَا تُمَارس الطُقوس الدِينِية أمَام الآلِهَة بِكُلِ استرخَاءٍ ورَوحَانِية، العَجِيب في ذَلِك هَل الآلِهة تَحتَاج إلى كُل هَذَا الكَم مِن الانفِصَامِ في الدِمَاغ !، وهَل المُؤمِنُون هُم يَعتَقِدُونَ بِالآلِهة ذَاتِهَا أم بِالسَجَائِر المَحمُومَة بِالحَشِيش يا تُرى.. !

لَيسَ هَذَا حَدِيثَنَا، فَالكُل يُدَخن على لَيلاهُ، مَع أنِي أرى بِأنَ وَضعِ أيَةِ مُنِبهَاتٍ دَخِيلة على التَبغِ

بِكَافَةِ أنواعِهِ هِي بِدعَة ويَجبُ مُحَارَبَتِهُا، فَمن أدَخلَ على سَجَائِرنَا مَا لِيسَ فِيهَا فَهو رَد، والكُلُ يُؤخَذُ مِنُ ويُرَد إلا نَبتة التِبغِ وفَضَائِلهَا التِي عَمَت على تَوتِر ونَفسِيةِ المُواطِنِ العَرِبي

ودَائِمَاً السِر في السِيجَارة يَكون في مَا تَحتَوِيهِ أورَاقِ التِبغِ مِن نِيكَوتِين، وللأمَانَة العِلمِية فإنَ اسم نَبتَة التِبغِ: النِيكُوتِينية، فَمنذُ أن دَخَلت الوَطن العَربي وهَيَ تُعطِينَا مَزِيداً مِن الجَلدِ والتحمُلِ، فَبِفضلِ الله ومِن ثُمَ فضِلِهَا وأنَا إلى هَذِهِ اللحَظة على قَيدِ القَلمِ والوَرق

بَس سُؤال ..لو تَرمِي عَلي سِيجارَة مِن فَضلِك الآن.. !!

و الله إنِي بِأمسِ الحَاجَة لَهَا وفي شَوقٍ لِتَبخِير المُنفَرِدة التي أطوي وَجَعِي وألِمي وجُوعِي وقِلَةَ

حِيلتِي بِبَركَتِهَـا، لا تَقُـل لِي اتَـقِ الله، واطُلـب العَون والدُعَاءِ مِنَ الله، والله سَوف يَستَجِيبُ لَكَ! ..

يَا سيدِي ونِعَم بِالله،

هُنَـاكَ لَحظَـاتٍ وكِلمَـاتٍ تَتَلقَفُهَـا الألـسُن ولا تَعتقِد بِهَا القُلُوب، كَحِدِيث التَقَوى الذِي مَلأَ الكـونِ زُعَاقَـاً وكَـذِباً ونِفَاقَـاً، كَـأن تَخـرجُ مِـن صَلاةِ الجُمعَة أو مِن قِـدَاسٍ، على أبَـوابِ الله تَـسمَع لِجَـانِ التَحكِـيمِ بِالـذَمِ أو الإطـرَاءِ للخَطِيـب بِكَلمَتِـهِ التـي صَـدَّعَت جُـدرَانِ المَـسَاجِدِ أو الـصَوامِعِ، الـسُؤَال لمَعَاشِـر المُؤمِنِين كَم مِن خِطبَةٍ رَنَانَة بِحَاجَة للوَطنِ العَرِبي لـسَدِ جُـوعِ الفُقَـراءِ وكَـم مِـن صَـهِيلٍ ونَقِيقٍ على منَابِر التَقوى لِتَحرِيرِ فِلسطِين !،

وكَم مِن أثَوابٍ نَقِية باسمِ الرَبِ ولِحَى طَاهِرة تُنسَبُ لعِفَةِ الأنبياء لنَتَحضَّر ولنتَمَدّن !، وكَم حَفَلاتٍ تَنكُرِية تَدعُو إلى الوَسَطِية والاجتِمَاعِ على كَلمَة توحدُنَا ونَبذِ مَا يُفرقُنَا لِتجفِيفِ الدِمَاء وإعَادَةِ السِيوفِ إلى مَضَارِبِهَا.. !

بِاسمِي وبِاسِمِ جَمِيعِ أنَواعِي التِبغِ العَالمِي فَإنَنِي أُهنِئُ جَمِيع عُلمَاءِ الدَينِ بِكَافَةِ أطيافِهِم ولا استَثنِي مِنهُم فِرعونَاً مِن فَراعِنَةِ الآلِهَاتٍ الخِيَالِية التي أتَت بِوَابِلٍ مِنَ الدِمَاءِ والقَتِل والتَشتُتِ بِمُسَمياتٍ عِدة..

هَؤلاءِ الطَواغِيت الذِينَ لَبسُوا ثِيابَ التَقوى وقِنَاعِ النِفاقِ ذَلِكَ خَير، رَبَطُوا مَصِير الإنسَانِ العَرَبِي بِالمَاضِي، وعَقَدوا دِينَهُ وأوامِرَ رَبّه بِالتَارِيخ، ورَاحُوا يَرسمُوا خُطَطَ ومُستَقبلَ

العِبَـادِ والـبِلادِ بِفـرَائِضِ الـذَبحِ والحِقـدِ والكَراهِية، وتَنبؤوا بِمَا سَيحدثُ وبِمَا حَدث، وجُـودُهم كَـصَخرة عَلـى العَـرب والمَحبـة والتَسَامُحِ والصَلاحِ، وآخِر المَطَاف يُطلقُ عَلِيكَ عَبد، وقَد خَلقَكَ اللهُ حُراً مِن رَحِمِ امرَأةٍ حُرة

أرجُوك ألقِ عَلِيَ سِيجَارة .. صَح نَسِيت بِأنَنِي في غَيَاهِيبِ الوَرق وأنتَ تَقرأُنِي..

عَبد .. هَذِهِ العُبُودِية المُزَيفة التِي رَاحَ ضَحيتُهَا مَلايينِ من الجَمَاجِمِ ومِليَارَاتِ من المَفقُودِين، بِهَـذِهِ العُبُودِيـة رَاحَ الإنـسَان يَقتُـل أخَـاهُ الإنسَان تَحتَ رَايَاتٍ تَدَعِي بِأنهَا سَمَاوِية المَنشأ رَوحَانِيـة الهَـوى، دَائِمَـاً كُنـتُ أُكـرِرُ كَـم مِـن قَـرَابِين مُمتَلِئـة بِالـدِمَاءِ تَحتـاجُ الآلِهـة لِتُـشفُى مِـن مَراسِـمِ الكَـوارِثِ الغَير إنـسَانِية !، وهَـل

الآلِهَـة تَخلُـق ثُـمَ تُلقِـي بِمَـا خَلقَـت بِـلا زَادٍ ولا رَاحِلـة في هَـذا الفَـضَاءِ المُتَـصَارع ثُـم تَـأمُر مَـا خَلقَت من الخلق للتَنَاحُرِ والذَبحِ والقَتلِ.. !

نَحنُ لَيسَ ضَحَايَا سَجائِر .. لا واللهِ..

نَحـنُ ضَحَايَا مُجتمَعَـاتٍ مَحمُومَـة بِـالعَواطِفِ والمَـشَاعِرِ والخُرافَـاتِ، التي تَـأبَى إلا أن تُحَـرِكَ شُعُورِهَا البَارِد، وتَأبى فَتحِ عُقُولِهَا وذَكَائِهَا، مَا مَعنَى أن تُكفِرنِـي وتُخرجَنِي مِـنَ المِلـة وأنـتَ تَحمِلُ في عَقِيدَتِكَ سِكِينَاً أو سَيفَاً أو رَصَاصَاً وتُرِيد أن تُوارِينِي في عَالمِ التَوابِيت، أليسَ أنتَ قَـاتِلاً بِأفكَارِكَ !، أليسَ حُكم المُرتَدِ القَتل وأنَا في مِحراب اللهِ أدعُوا إلى السَلام !، مَن المُجرم فِينَـا يـا تُـرى مَـن حَمـلَ عَقـلاً وسِـلاحَهُ القَلـمِ والـسَجائِرِ أم مَـن حَمـلَ بُغـضَاً وتَقِيـة وقِنَاعَـاً

ودُستُوراً يَدعُو لِلقَتلِ.. !

بِحسبِ النَظَرِية التي أعمَت بَصِيرة عَقلِكَ بِغشَاوةِ أفكَارِكَ التي تَقطُرُ دَمَاً، وعَقلِي الذِي لم أدعك تَتَسللَ إلَيه على حِسَابِ حُرِيتِي وقَضِيتِي التي تَدعُو إلى المَحَبة وسِيجَارتَي التي أنتفِعُ بِهَا أكثر مِن نَفعِي بِالجُلوسِ مَعَك..

فِإنَ السَجَائِر مُفِيدة بِالصِحة أكثر مِنَك ومِن أمثَالِكَ، هَل تَفهَم مَا أعنِي يا حَامِلَ المِسكِ والبَخُورِ بِيدٍ، وفي اليدِ الثَانِية سَيفاً ورُمحَاً، وفي أحشَائِكَ بُغضَاً وكُرهَا وتَقِية جَربَاء أودَت بِحَياة كَثِير مِن بَنِي البَشر وقَتَلت كَثِير مِن العُزَل وشَتَتَ كَثِير مِنَ الآمِنِين، هَنِيئَاً لَكُم بِمَا قَدمتُم من خَيالاتٍ وحُورِياتٍ وجِنَانٍ لِمن مَشَى على دَربِ دِمَائِنَا، ويا فَرحَتنَا بِسجَائِرنَا

ودُخَانِنَا..

أنَا هُنَا، هَل تَسمعنِي ..!

اللَون،

أنَا هُنَا، هَل مَن أحدٍ يَسمعنِي.. !

إذا مَررت مِن هُنَا فَأنَا هُنَا، لا زِلتُ على قَيدِ الحَدِيثِ مَعك، أُمرِغُ أنفِي بِمُنفَرِدَاتِ الوَطن، الفَارِق الوَحِيد بين أن تَقرَأنِي وبينَ أن تَسمَعنِي هُو اللون، أقصِد بِلونِ المكَان والآلة الزَمنية في حَدِيثِي الرُوحِي ولُغَة الحُروف التِي تَرَاهَا على السُطُور الهَندَسِية الوَهمِية التي لا تُرى لا بِالعَينِ المُجَردَة ولا بِالعَينِ المُمَغنَطة، أعُود إلِيكَ حَيثُ قُوةَ الضَوء، الفَاصِل هُوَ لَون الضَوء بينِي وبَينَ مَا تَرى، فربما الآن أنتَ مُسَافِراً إلى بِلادٍ لِقَضَاءِ شَعَائِر السَعَادة على حَسَبِ المُقَدَراتِ الرَفَاهِية والحِسَابَاتِ الوَرَقِية

أو النَقدِية التي تَمتَلَكهَا، أو لَعَل سَفَرك هَذَا بُغَيةَ إحَراقِ تَذَاكِر الأحزَانِ، ورُبَمَا الآن تجَلس في أحدِ المَقاهِي اليافِعة بالتَبختُر أو المَقَاهِي الدَافِئة التي يَرتَادُهَا عَامَة الشَعب، هَذِهِ المَقَاهِي التي تمنَحنِي مَزِيداً مِن الرَوحَانِية ومَزِيداً مِن الأصَالة، أصَالة الفِكرِ والتَواضُع وأنك أنت جُزأ مِن الكُومبَارس اليَومِي لَهؤَلاءِ النَاسِ المُفرِطِينَ في إضَاعَةِ أوقَاتَهُم، أنَ هَذِهِ التَجمُعَاتِ الشَعبِية المُتَرامِية على بُؤسِ الوَطنِ العَربِي لَهَا مِن الفَضَلِ مَا لم يَجد بِهِ الرُعَاة على الرَعِية، فَمن كَان لَهُ هَمَاً أو غَمَاً أو أحدَاثٍ تظهر على حَواسِكَ المُتَجسِدة على مَتَاهَاتِ الوَجهِ آثَارِ اللكَمَاتِ التي أحَاطَت بِزلازِلِ بَهجَتِكَ، فَإنَ عُيونِ الفُضُولِيين في هَذِهِ

المَقَاهِي لَن تَدعَك بِكَمَدِكَ، سَيُعكِرونَ صَفوَ انسِجَامِكَ بِتَطفُلِهِم بِتَربِيتِ كَلمَاتِهِم على كَتِفِ وَجَعك، وأنتِ في ذَاتِكَ تَعلَم عِلمَ اليَقِين بِأنهَم لا يَعلمونَ مَا حَلَ بِك، كَأن يَقولوا لَكَ مَثَلاً:

طَول بَالك حَبِيب، هَونهَا بِتهُون، مَا في مُشكلة إلا ولَهَا حَل، كَبرهَا بَتكَبر وصَغرهَا بتصغَر، وهُلمَ جَرا..

في المَقَاهِي العَرَبية الكُلُ فِيهَا سَوَاسِية كَأسنَانِ المِشطِ، لا فَضَل لِعَرَبِي على عَجمِي إلا بِمَا دَفَعت أو طَلَبتَ أو أكرمَت النَادِل مِن بَخشِيش، هَكَذَا نَحنُ مَهوسُونَ بِالبَهوَرة والتَبجُحِ، نُحبُ السَخَاء ونَحنُ في أسوَءِ حَالاتِنَا، ونُحبُ مَن يضحَكُ عَلِينَا أكثر من الذي يُكِبينَا، وفي خِضَمِ هَذِهِ العَادة القَبِيحَة

التي جَـرت في دِمَائِنَـا مَجـرى الأُوكـسِجِين في الرِئَة، صَارت هَذهِ الجُزئِية تُعدُ كَرمًا أو دَعنِي أُقُولُ لَكَ غَباءً..

السُؤال هَل شَعرت بِقوةِ الضَوء والصَوتِ مِن حَولِكَ!

دِقـة مُتنَاهِيـة في لَـونِ الـوَطن تَحـتَ الأكـسَدة الـضَوئِية للأحَـداثِ مِـن حَولِـكَ، حَتى الـوَرَق الـذِي تَقـرأُه مُمتَـد بِبَيـاضٍ أشـتَهي رُؤيَتَـهُ، أمَـا الحُـروف والكَلمَـات التي تُـسَاقُ إلى أفكَـارِكَ مَغمُورة بِخمَرة الدُعجَة المُسودة بالحُزنِ كَلونِ المَكَانِ والزَمَان الذِي أخَاطِبكُ مِنهُ، تَشعُر هُنَا بِأنَ كُلَ شِيء قَـد تَعطَل، إلا الـرُوح تُخَاطِبك كَقَـارئ، وتُجَـرِدُكَ مِـن ذَاتِـكَ لِتَعـيش اللحَظَـةِ المَأسَـاوِية التي تَمـرُ بِي وفي أغلـب الأحيَان تَمـرُ

عَليَّ، إنَهَا قُوةِ اللون، ورُؤياكَ للأشِياء القُزَحِية المُجَردَة العَارِية التي لا تحبُ سِوى الفَاصِل الزَمَنِي في ما يُسَمّى الرَاحَة الجَفنِية أو الخُلودِ إلى النَوم، ورُؤيَاي للألوانِ هَو الزَمن الزَاهِد العَابدِ المُتمسمِر الذِي تَوقَفت ثَوانِيهِ في ثُقبٍ غَارقٍ بالظَلام، كُلَ شِيء أسَود هُنا أنَا والكَلمَات والأفكَارِ والاعتِقَادَات والمَشَاعِر والأحَاسِيس وكِسرةَ خُبزٍ جَافَة لم أستَطع ابتَلاعَهَا وقَطَراتٍ مُتَساقِطَة على رَأسِي وأحلامٍ مُكَبلة وأوهَامٍ مُصَفَدة وذِكرَياتٍ عَمياء وأهَدافٍ خَرسَاء وآلةِ اللسِانِ، حَتى الدُعَاء والصَلواتِ لم تَبلغ حُلقومِ في هَذَا المَكَان، نِصفُ مِترٍ بِنصفِ مِترٍ تَغصُ هَذِهِ المَسَاحَة بِرائِحَتِي المُنسَجِمة والمُتنَاغِمة بِمعزُوفَاتِي،

فَكُلِ هَـذِهِ الألحَـانِ الـصَامِتة بِهَيبـةِ نُوتَاتِهَـا وبجَلالـةِ مَقَامَاتِهَـا وبِـسَطُوةِ أوتَارِهَـا تُرافِـقُ الجُنـون إلى وحـدَتِي الظَلامِيـة، فَقـط في هَـذَا الـوَطن الألـوان لا تَختَلـف بـينَ مَـن رَمَى بِهِـم الظُلـم في مَحبَـرةِ الـسَوادِ وبـينَ مَـن عَجـنَهُم الاسـتبدَادِ بِصلـصَالِ العُبودِيـة، كُلنُـا عَبِيـد إن كُنتَ فَـوقَ التُرَاب أو تَحتَـهُ، اللـوَن السَائِد هُنَا لَـــونِ العُبودِيـــة، ومِـــن أجـــلِ أن تَحظَـــى بفِـسيولِوجِيةِ اللَـون يَجـبُ أن تَكـونَ في قِمَـةِ التَرويضِ والعِبُودِية، وإذا خَرَطَت مَبادئكَ عَن نَهجِ أربَـابِ ولاتِ الـوَطن فَإنـكَ سَـتكون وَلِيمَـة للظَلامِ، وكُلٍ على حَسَبِ لَونهِ، فَكُلمَا زِدَت مِن إذلالِ نَفـــسِك خَرجَـــت مِـــن الانعكَاسَـــاتِ الرَمَادِية البَاعِثة للحُزنِ والألم، وسَـوفَ أُعـري

أدَبِي أمَامَ السَادَة العُلمَاء الذِين لم يَنسَجمُوا مَع هَذهِ المَجَرة القَاتِلة لِكُلِ مَنَافِذِ الألوان، يَقولَ العُلمَاء بِأنَ الظَلام عَكسَ السُطُوع، وبِمعنَى آخَر غِيابِ الضُوءِ المَرئي، وهَوَ ظُهُورِ اللونِ الأسَود في المَسَاحَاتِ المُلوَنَة، حَيثُ لا يَستَطِيع بَنِي البَشَر تَمِييزِ الألوَانِ عِندَ زِيادِة الضُوءِ على الظُلمَة، وفي ظُروفِ قِلةِ الضَوءِ يَكونِ التَصورِ بِلا ألوَان، فَفِي نِهَايَةِ المَطَافِ يُهَيمنُ اللَونِ الأسَودِ على كَافَةِ الألوَان..

و لِأنَ اللونِ الأسَود مُهِيمن وقَاتِل وفَارس وطَاغِية لِبَقِيةِ الألوان فِإنَنَا نُطلِقُ على سَيدِ القَومِ بِسِيادَة فُلان، وقَالوا بِأنَ اللونِ الأسَودِ هُوَ سِيدِ الألوَان لأنَهُ مُستَبِد وظَالم وتَليقُ بِهِ السِيادة، ولو دَقَقت مَعِي بِالشَيءِ المُتَحكَم

والقَاتِل والظَالم لبَنِي البَشر فَسَوفَ تَرى بِأنَ مَبعثَهُ الظَلام أو بِلغَة صَرِيحَة السَواد، خُذ أمثِلة وَاقِعِية، النِفط: أسَود ومُتَحكِم وبِهِ ولَهُ ومِن أجلهِ يَقتَتِلُ الطُغَاة لِتَقع الشُعُوب مِن أمثَالي وأمثَالِك ضَحِية اللونِ الأسود، وأقرب مِثَال العِراق الشَقِيق الذِي يَدَفعُ اللونِ الأحمر دِمَائَهُ مِن أجلِ سَوادِ النِفطِ العَربِي، عِندمَا وُلدَ القِس جُورج بُوش وحَمَل لَنَا رَسَائِلهُ التَبشِيرية رُحنَا نَستمعُ لَهُ ونَنصُت ولَكأنَهُ قُرآن كَرِيم، وهَو يَدعوا الشَعب العِراقِي والعَالم بِأسرَهُ إلى السَلامِ والمَحَبة، فَمَا كَانت مِن عَواطِف العَرب الرَقرَاقة إلا أن آمَنت بِهِ وبِرسَالتِهِ وصَدقتهُ، وبَعد أن حَمَل سيوفَ السَلامِ لِقتل الظُلمِ والظَلامِ، حَتى دَخَل بَغدَاد

على بَغلتِهِ عَفواً على دَبَاباتِ ابرَامز المُدَمِرة، ضَحِكَ القِسُ بُوش الابِن على بَراءةِ العِراقِيين خَاصَة وعلى العَالمِ عَامَة عِندمَا حَاصَر الجَيشِ الأمرِيكِي المَلائِكِي العِراق ووَضعَ فَمهُ في ثَدِيي آبارِ النِفطِ العِراقِية وبَدَأ يَرضَع النِفطِ الأسَود، لم أتَوقع بِأنَ القِس جُورج بُوش ومَلائِكَةِ المَارِينز جِياع إلى هَذِهِ الدَرجَة مِنَ الشَرهِ، وحَتى لا نَظلُم ذَلِكَ القِس الذِي انقَلبَ شَيطَانَاً وبِقُرون مُسَننَة، راَحَ يَنقُل النِفطِ الأسَود إلى الوِلاياتِ الأمرِيكِية المُحتَلة بِبارِجَاتِهِ وسُفنِهِ الحَربِية التي أحضَرَ لَنَا بِهَا أسلحتَهُ التي بَاعَهَا للعِراقِيين لِذَبحِ بَعضَهم بَعضَا من أجلِ تَشتِيتهم طَائِفِياً وعِرقِياً وفكرِياً، ولَو تُلقي نَظَرة اليَوم على العِراق مَا

هُوَ المَشهَد المُشتَهى الذِي سَوف تَراه يا تُرى !!

المُشتَهى حَدَث، والمُؤامَرة اتضَحَت، والأخَوة تَنَاحَروا مِن أجلِ لُقمَةِ خُبزٍ، أو مِن أجَل اعتقَادَاتٍ قَد بَال عَلِيهَا التَارِيخ وتَغوطَ عَليهَا الزَمَان، وشَلالِ اللونِ الأحمَرِ بِدمَائِهِ ومَجَازِرِهِ لم ولن يَتَوقف، مَا دَام لُصُوصَ السَلامِ الأمريكَان ينبشُونَ مُقدَراتِ وخَيراتِ العِراقِ ويَنقلونهَا إلى الفردوس المُحتَل التي تَدعِي الحُرِية، فَالقَاسِمِ المُشتَركِ بَينِ النِفطِ المَنهُوبِ المُحَملِ في صَهَارِيجِ الأمرِيكَانِ وبينَ رَايَةِ دَاعِش الحَالكَة بِالقَتِل والذَبحِ هُوَ اللونِ الأسَود، السَواد هَوَ نِهَاية المُنعطفِ لِكُلِ إنَسان، نَكذِبُ على أموَاتِنَا عِندمَا نُغَسِلهُم ونُكَفِنَهُم ونُعَطرَهُم ونَضَعهُم في تَوابِيت خَشَبِية مَحفُورة بِلُغَاتِ

عِدة ومِن ثُمَ نُلقِي بِهم في حُفَرة مُظلِمة قَاتِلة لِجَمِيعِ الألـوانِ هَيَ آخِـرُ مَـا نَملـك على هَـذِهِ الأرض، وهَكَـذَا الإنـسَان الـذِي يَبحـثُ عَـن كَرامَتهِ وعِن صَوتِهِ وعَن ألوانهِ المُفَضَلة يُلقى إلى دِيـدَانِ الظَلامِ والـسَوادِ كَولِيمـة تَأدِيبِيـة رُبمَـا يَخـرجُ مِنهَـا وعلى الأغَلـب لـن يَخـرج، لأنَ الـدَاخِلِ إلى اللـونِ الأسَـود مَفقُـود والخَـارِج مَولُود،

أنَا هُنَا، هَل تَسمَعنِي ..!

وِراثَة،

أنَا هُنَا، هَل من أحدٍ يَسمعنِي.. !

في النَوائِب أنتَ تُمثِل الآخَرِين، وفي الرَخَاءِ أنتَ تُمثِلُ ذَاتك، تعال معي ولَكِن كَيف نُفَسِر هَذِهِ النَظَرِية.. !

خُذ هَذَا المِثَال: أنتَ كَفردٍ في هَذَا العَالم، عِبَارة عَن نَسمَة لا تُرى بِالعِين المُجَردة، يُطَلَقُ عَلِيك إنسَان، وجَاءت هَذِهِ التَسمِية مِن قَبِيلة أشَباهِ البَشَر التِي تَنتَمِي إلى فَصِيلةِ القُرودِ العُلِيا، أي أنتَ الكَائِن النَاجِي الوَحِيد الذِي سَلمَ عَقلَهُ مِن الجُنُون، ومُصِيبَتُكَ كَإنسَان أنَكَ تَمتَلِك دِمَاغَاً عَالي التَطُور بَل قَادِراً على التَفكِير المُجَرد واستخدَامِ اللغُة والنُطقِ

والتَفكِيرِ الدَاخِلِي الذَاتِي وإعطَاءِ لِكُلِ مُشكِلة حَلاً أو العَكس، وإلى آخِرِهِ..

الإنسَان، أقصِدُكَ أنتَ وأنَا .. دَائِمَا هُنَاكَ بينَ بَني الإنسَان فَواصِلَ مُتنافِرة هِي دَخِيلة على عَقلِ الإنسَانِ، وهَذِهِ الفَواصِل لَهَا عِدة تَسمِيات وشَكلِيات، ومِن الوَاجِب عَلِيكَ التَقِيدُ بِهَا والانصِياعِ إلى حَذَافِيرِهَا، وأنتَ في أعمَاقِ دَاخِلكَ تَعَلم عِلم اليَقِين بِأنَك تَفعَل هَذهِ الاعتِقَادَاتِ وأنتَ مُرغَمَاً عَنك، وتُقَيد فَورَ وِلادَتِكَ بِاسمٍ لم تَختَارهُ وتُحَاطُ بِمُجتَمعٍ أنت مَجبُورٍ على العَيشِ بِهِ، وتَتَشَرب مِن دِينٍ ولو بِالقَوة، وتَتَعَايَش في وَسَطِ عَاصِفة وتَنَاقُضَاتِ بل في غَابةٍ مِنَ الوحُوشِ البَشَرية المُشبَعة بِالأمراضِ النَفسِية، وعِندَمَا تَصِل

سـنَ الرُشـدِ تَبـدأ عَمَلِيـةِ التَـروِيضِ وتُوجَـهُ فِكرِياً ورُوحِياً على حَسَبِ تَطبِيعِ العَائِلة التِي تَرعرَعـتَ حَولهَـا، والمُـصِيبة العُظمَـى عِنـدمَا تُـسَدُ فـي وَجهِـكَ جَمِيـع الاسـتفهَامَاتِ والتَعجُباتِ، كَأن تَتَسَاءل مَثَلاً:

الدَين الذِي يَدِين بِهِ المُجتَمع الذِي حَولِي مِن أيـنَ أتَـوا بِـهِ !، والـرَب الـذِي يَعبـدُون كَيـفَ اكتَشفُوهُ.. !

طَبعـاً هَـذِهِ التَـسَاؤلاتِ سَـتُتعِبكُ وسَـتلحَقُ بِـدِمَاغِكَ الـضَرِر، والتَفكِير بِهَـا بِـصَوتٍ عَـالٍ، سَـتكُونَ مَـشنقتِكَ أعَلى مِن صَـوتِكَ، سَتَـصِل في آخِـرِ المَطَـاف بِأنَـك في عَـالم يَـدَورُ فِكرِيـاً وعَقَدِياً في حَلقة مُفرَغة، هَذا الرُكن الحَصِين بِالقَوانِين السَمَاوِية والأعرافِ والتَقَالِيدِ وحَتى

الدَسَاتِير الوَضعِية، وجِدت لِمصلَحَةِ الإنسَان فَقَط كَمَا ادعَى وَاضِعَهَا، وكَانَ لِزَامَاً على مَن صَدَقَهَا وآمَنَ بِهَا أن يَخضَع لِحَذَافِيرهَا..

و لِأنَكَ إنسَان، ومَع أنَنَا تَعلمنَا أنَ الإنسَان أخُو الإنسَان، هُنَاكَ كِذبة يَجبُ على المُجتَمع الذي نَشأتَ بِهِ أن تُصدِقَهَا، ألا وهِيَ الحُرِية والدِيمُقراطِية والمُسَاواة، وكُلَ كِذِبة مَصدرُهَا شَيء غَير مَرئِي نَحنُ نَعرفَهُ ونُنكِرهُ في آنٍ وَاحِد ألا وهُيَ الوِراثة..

الوِراثَة لا تَكُن فَقَط في عَالمِ التَرِكَات والأموَالِ .. هُنَاكَ تَرِكَات أشَدُ رُعبَاً نَرِثُهَا مِنَ الأهلِ ونَحنُ لا نَشعُر بِصَدَاهَا، ولأنَ الغَبَاء يَحلُ في عُقُولِنَا كَلعَنة لَيسَ نِسبِية أو جُزئِية، فَمِن الصَعبِ التَخلصُ مِنهَا، لأنَكَ جَبَان وتَخَاف مِنَ النَاس،

النَـاس وَحـدَهُم مُـضرِونَ بِـالفِكِر وبِـالفِطرَة، ولأنَكَ جُـزء مِـن النَـاسِ والـسَيفِ الـذِي يَحمِي اعتِقَـادَاتِهم وجُنُـونِهِم، فَجَـب عَلِيـكَ أن تَكـونَ ضَحِية في سَـبِيلِهِم، المُـصِيبَة بِأنَـكَ تَعِـيش في مُجتَمع يَدَعِي بِأن لَـهُ دِمَاغ يُفَكر ويُدَبِر ويَدَعِي الأُلوهِية وفي نَفسِ الوَقتِ يَتبَجحُ بِالعُبُودِية، وَحَـدهُم الطُغَـاة مَـن تَحـرَر مِـن العُبودِيـة وأعطُوا لأنفُسِهم فُرصَة التَخبُطِ واستعرَاضِ طُغيانِهم على بقِيةِ الخَلقِ، فَالحُلولِ الوَسطِية في هَذَا العَالم مَرفُوضَة ولا تَقبَل المُنَاقَشة لأنَ العُقُـول مُعَطَلَـة أمَـام أعتَـابِ العُبُودِيـة والرَوحَانِيـة والعَـادَاتِ والخُرافَـاتِ وأحَادِيـثِ الهَوى..

لَقد أعيَانِي البَحثُ في الكُتُبِ المَحفُوفَة بِمكَارِمِ

الأخَلاقِ والقِيمِ وتَهذِيبِ النَفسِ، هَذِهِ الكُتب بِالذَات المَنسُوبَة إلى الرُسُلِ والأنبِياءِ والصَالحِين وهُلمَ جَرا مِن الأوهَام لا تَخلوا مِن نُصُوصِ القَتلِ والذَبحِ والإرهَابِ..

يَستوقِفنِي المَنطِق أمَام عَظَمَةِ الآلِهة، لأتَحدَثَ مَع الآلِهة بِاللغُة المُجَردة مِن أيةِ لُغَاتِ العُبُودِية والذُل لأطرحَ بَعض الأسئِلة:

عَبدُ الله! ..

عَبد المَسِيح! ..

عَبد الرَب! ..

عَبد بُوذا! ..

عَبد هُبَل! ..

عَبد عِيسَى! ..

و هَـل العُبُودِيـة مَعقُـودَة بِالـذُلِ !، أم نَحـنُ أغبِياء ولم نَعِي مَا هو مُراد الآلِهَة! ..

لِمَا هَـذهِ اللغُـة بِالكَراهِيـة والـضَعفِ والكَـذِب على بُـؤسِ البَـشَرِ!، لِمَـا لا تَكُـون لُغَـة حُـبٍ وعِشقٍ بيننَا وبِين الحَق مَسِيرة عَقل ! ؟..

حَبِيب الله! ..

حَبِيب المَسِيح! ..

حَبِيب الرَب! ..

حَبِيب بُوذا! ..

حَبِيب هُبَل! ..

حَبِيب عِيسَى! ..

هَل نَقصَ مِن حَجمِ الآلِهة عِند حَذفِنَا تُرَهَاتِ العُبُودِية، وهَل العِشقُ حَرام يا أبنَاء الحَرام!؟

وِراثَة .. نَحنُ نَرِثَ الدِين والقَضَايَا والعَادَاتِ والتَقَالِيد والمَاضِي والتَارِيخ والدِمَاء والخِيانة والكُراهِية والبُغض والطُغِيان والأفكَارِ المُهتَرِئَة والمُرقَعة والكَاذِبة والمُنَافِقة والمُتَهَورِة، فالمُعتَقَدَاتِ التي تَحضُ على القَتِلِ والتَخرِيبِ والذَبحِ والسَلخِ والإحتِلالِ والتَهجِير والنَفِي والظُلمِ، ولو سَألتَ كَيف ومَتى ولِصَالحِ مَن هَذَا الرُعب الذِي يُؤرِقُ مَضَاجِعَ الضُعَفَاءِ..

سَأقُولُ لَكَ كُلُهُ بِاسمِ الله،

و كَذِلك لِصَالحِ مَن مَلؤوا جُيوبَهَم وبُطُونَهم وفُروجَهم مِن سَبَيا وغَزواتِ وسَرقَاتٍ وجَواري المَظلُومِين..

و لَولا الوِراثَة القَذِرة لم أصِل إلى مُعتَقَلاتِ المُجرِمِ الرَئِيسِي لمواطِنِ اليَاسَمِين سِيادةِ

الطَاغِية بَشَارِ الأسَد..

و لأنَنَا نَعِيشُ في دَولَة مُستَقِلة تَحظَى بِسِيادَة جَائِرة ودِيمُقرَاطِية مُزَيفة، لم نَعُد نَستَطِيع التَمِييز، هَل نَحنُ نَعِيش في جَمهُورِية عَرَبِية مُستَقِلة !، أم في نِظَامٍ مَلَكِي يُعَطَى الحُكمُ لِولاةِ العُهُودِ مِن أجل أن يُقِيدُونَا بِالقِيود.. !!

و لا يُورَثُ الحُكمُ لِوَلِي العَهَدِ إلا بَعد أن يَجلس على جِبَالٍ مِن الجَمَاجِمِ والمظَالِمِ، هَكَذا نَحنُ في عِيونِ الحُكَامِ العَرب مُجَرد تَرِكَة دَسِمة لأبنَائِهم وأنظِمتِهم وسِلعَة صَعبة ويَجِبُ على الوَرثَة صَونهَا بِكُلِ وَسَائِلِ الاحتِقَارِ..

أيُهَا البَشر العُقَلاء الذِين لم تَبِيعوا ضَمائِركُم، ولم تَرِثَوا أفكَاركُم، ولم تُؤجِروا أدمِغتِكُم، هَنِيئَاً لَكُم بِمَا صَنعتُم، فإنَ تِجَارتَكُم مَع

الـذَاتِ تِجَـارة رَابِحـة، لَقـد عَلـمَ العَمَالِقـة مـن أهَـلِ العَلـمِ بِـأنَ العَلـم لا يَـأتِي وِراثَـة ولا حَـشو الأدمِغـة بِـشَعَائِرٍ خَدَاعَـة، هَـؤلاءِ العَمَالِقـة لـم يَـصِلوا إلـى هَـذهِ المَرتَبـة إلا بِكَـسرِ حَـواجِزَ الخَـوفِ ورَمِي مَا وَرِثُـوهُ خَلـفَ ظُهُـورِهم، فَلقَـد قَـال رَسـولَ الله:

إنَ الله لا يَقـبِضَ العَلـم انتِزَاعَـاً يَنتَزِعَـهُ مِـنَ النَـاس، ولَكِـن يَقـبِضَ العِلـمَ بِقَـبضِ العُلمَـاءِ، حَتى إذا لـم يَترُكَ عَالِمَـاً اتَخَـذَ النَـاسَ رُؤوسَـاً جُهَـالاً، فَـسُئِلوا فَـأفتُوا بِغَيـرِ عِلـمٍ فَـضَلوا وأضَلوا.

أنَا هُنَا، هَل تَسمعنِي .. !

الضَمِير،

أنَا هُنَا، هَل من أحدٍ يَسمعنِي..!

سَـأبُوح لَـكَ عَـن شَـيءٍ فَقـدنَاهُ، وإن وَجـدَنَاهُ فَهذَا يَعنِي بأنَ الدُنِيا لا زَالتْ بَخِير، طَبعَاً هَذَا إن وجِـدَ الخَير أصَـلاً، يَقُـول الفَلاسِـفة بِـأنَ هُنَاك أشَياء ولـدَت مَع الإنسَان، هَـذِهِ الأشَياء مَحـسُوسَة ولَيـسَت مَلمُوسَـة، إنَهَـا الطَاقَـة المُتَشَبِثة بِسَعَادَتِكَ أو تَعَاسَتِكَ، فَأنتَ المَقتُول أو رُبَمَـا القَاتِـل في هَـذِهِ المَعركَـة المُتَمركِـزة في دَاخِلك، فَلقَـد عَجِـزَ العُلمَـاء مِن الإمسَـاك بِهَـا أو حَـصرِهَا في عَقَـاقِير كَالسَـوائِل التي نَرَاهَـا في المُختَبَرات، كَـم أجهَـدوا أنفُـسَهم العَلمَـاء أن يَجِـدوا لَهَـا خَلِيـة أو ذَرة أو عَينـة، لَكـنَ وَفَـروا عَلِينَـا كَثِيراً مِـنَ الكَـوارِث البَـشَرِية والكَونِيـة،

وبين هَذِهِ المَخلوقَاتِ العَجِيبة التي يَصعُبُ على اليَدِ الإمسَاكِ بِهَا شَيء اسمُهُ: الضَمِير..

هَل تُحب أن نُكمِل أو أتَوقَف عَن الثَرثَرة .. هَا !! مَاذا قلت ؟

حَسَنَاً .. يا صَدِيقِي الضَمِير هُوَ وَظِيفَة مِن وَظَائِفِ الدِمَاغ التي تَطوَرت لَدَى الإنسَان لتَسهِيلِ الإثَارِ المُتَبَادَل أو السُلُوك المُوجَه مِن قِبَلِ الفَرد لمُسَاعَدةِ الآخَرِين في أدَاءِ وَظَائِفِهِم أو احتِياجَاتِهِم دُونَ تَوقعِ أي مُكَافَأة وذَلِكَ دَاخِلِ مُجتَمَعَاتِهِم، والضَمِير وَصف كَلِمَة تُجسِد كُتلَة ومَجمُوعَة مِن المَشَاعِر والأحَاسِيس والمَبَادِئ والقِيمِ التي تَحكُم الإنسَان وتَأسِرهُ لِيكُون سُلوكَهُ جَيد ومُحتَرمَاً مَعَ الآخَرِين لِيحُسَ بِهِم ويُحَافِظَ على

مَشَاعِرِهِم ولا يَظلمَهُم ويُرَاعِي حُقُوقَهُم، وكَمَا قَال عُلمَاءِ النَفسِ وباختِصَار شَدِيد: الضَمِير هَوَ مِيزَان الحَسِ والوَعِي عِنَدَ الإنسَان لتَمِييزِ الصَحِيحِ مِنَ الخَطَأ مَع ضَبطِ النَفسِ ومَع الحَضِ على العَمَلِ الصَحِيحِ والبُعدِ عَنِ الخَطَأ..

لَقَد شَخَصَ وعَرفَ العُلمَاءِ والحُكَمَاءِ والفَلاسِفة مَا يَدورُ حَول مَجرَةِ الضَمِير مِن دِرَاسَاتٍ ورُؤى سَطحِية للضَمِير، ولَكِن العِلاج مَفَقُود ولله الحَمد، ونَظَرِيتِي تَقُول:

بِأنَ كُلَ شَيءٍ مَحسُوسٍ لا يُرى لا بِالعِينِ المُجَرَدَة ولا بِغَيرِ المُجَرَدة، لا يُمِكِن عِلاجَهُ بِالعَقَاقِيرِ المَلمُوسَة..

فَكَيفَ لَو كَان الضَمِير يَختَلف بين كُلِ قَارَة

وقَـارة، أو بـين كُـلِ بَلـدٍ وبَلـد، أو بـينَ كُـلِ عِـرقٍ وعِرق.. !!

أمَا المِقِياس في تَحدِيدِ تَورِمِ الـضَمِيرِ وتَحسُّنِهِ إلى الأفَضَل في أي بَلدٍ كَان هُوَ العَدل .. العَدل هَوَ العِلاج الوَحِيد لاستئصَالِ سَرطَانِ الـضَمِير وسَـحقِهِ، فَالإنـسَان دَائِمَـاً يُحَـاوِلُ تَحـسِين ضَـمِيرهُ وتَجمِيلـهُ بِـالخَيرِ والمَحَبـة، إلا قَلِيـلَ العَقَـلِ وصَـاحِبِ الأوسِـمَة البَراقَـة بِالحَـسَدِ والحَقـدِ، هَـذَا الـصِنف بِالـذَات لا تَرجُـو مِنـهُ خَيراً، أنَـا سَـأقُولُ لَـكَ مَتى سَـتعرِف ضَـمِيركُ حَياً..

الـسَهرِ.. لَيسَ حُبَاً بِالسَهرِ، ولَكِن هُنَاكَ مَانِعٍ يُجبِرُكَ على عَـدمِ النَـومِ، لَأنَ النَـوم على ذَنـبٍ اقتَرفتَهُ نَوعَاً مِن أنـواعِ العَـذَابِ، وأيـضَاً فَقـدِ

شَهِية الأكلِ وعَدمِ ابتَلاعِ أيةِ لُقمَةٍ، لَيسَ لِمَانِعٍ مَرضِي، ولَكِن لِضَمِيرٍ مُلتَهِبٍ قَد غَصَ بِحَلقَكَ، فَالأكَلُ على ضَمِيرٍ نَجسٍ كَالصَلاة بِلا طَهَارة، وتَعذِيبِ النَفسِ أحَيانَاً كَمُعَالجَةِ الخَلِ بِخَلٍ أعَظم، كالتِهَامِ المَحضُورَاتِ والمُخَدَراتِ والمَشروبَاتِ الكُحُولِية والحَشِيشة وغَيرِهَا مِن السُمُومِ القَاتِلة للتَفكِير وخَلايَا الدِمَاغ، فَستجِدهُ بِعينَينِ مُرهَقَتِين، قَد أجهَدهُ التَعب مِن جَمِيعِ حَواسِهِ، تَراهُ يَبكِي بِصَمت كالثَعَالب يَخُور خَوراً حَول فِعلَتِهِ، والعِلاجَ بِيدهِ كَمَا أنَ الضَحِية تَمَ القَضَاءِ عَلِيهَا بِيدهِ..

يَتحَرك ضَمِير مَن أرَاد لِضَمِيره أن يَنتَفض، عِندمَا يَغصُ بِجنَايتِهِ، وتَختَمِر دِمَاءِ قَضِيتهِ، وتَتَعفن مَدَاخِلَ زَلتِهِ، عِندَهَا تَجدَهُ يَهرع إلى

مِحـرابِ التَوبَـة، يتَقَلـب على أعتَـابِ الـدَمعِ، يَرفَعُ أكُفَ الخُضُوعِ، هُوَ الضَمِير ولا أحَد غَيره مَن يَجلدَكَ بِسِياطِ ذُلـهِ ويُجبِرُك على الرُكُوعِ إلى ضَحيتكِ أو جِنَايتِك..

الأنظِمَــة المُتعجِرفَــة صَــاحِبة ألــفِ لِــسَانٍ ولِــسَان، تِلــكَ الحُكُومَــاتِ المُقَنَنَــة بأقنِعَــةِ الـدِفَاعِ عَـنِ الحُرِيـة والدِيمُقرَاطِيـة، بَيـدَ أن رَوائِحَ العُنصُرِية والطُغِيان تَسرِي بِهِم مَسرا السُمُ في الجَسَد، أمريكا مَثَلاً، تَقتُل القَتِيل وتَمـشِي في جِنَازَاتِـهِ، وحَتى الاعتِـذَار لَيـست مُستَعِدة أن تَتَلفظَهُ لأنَهَا تُعدهُ هَزِيمة، بينمَا أُعدهُ أنَا بِأنَ الضَمِير عِندهُم قَد تَخلصوا مِنهُ مُذ إقَامَةِ أولِ كَيانٍ لَهُم، مَن يَعتَذِر للأمواتِ، وهَل مَن طَواهُ التُرابُ سَيقَبلُ اعتِذَارِ الجَانِي !

سَتجِد ضَمِير الكَيان الأمرِيكِي في جَرائِم حرِبهم على الفِلبِين حَيثُ قُتِل وَاحِد مِليون و500 ألفِ مَدَنِي، سَتَجِدَهُ في مَدِينَةِ دِرِيسدن حَيثُ خَلف القَصفِ الأمرِيكِي في الحَربِ العَالمِية الثَانِية 25 ألفِ قَتِيلٍ وفي بَرلِين 500 ألفِ قَتِيلٍ ألمَانِياً، سَتَجِدَهُ اليَابَان في مَدِينَةِ هُيروشِيمَا ونَاجَازَاكِي حَيثُ قَصَفت المِليشيَاتِ الأمرِيكِية المَدِينَتِين بِقُنبُلَتِين نَوَوِيتِين رَاح ضَحِيتَهَا أختِفَاءِ المَدِينَتِين عَن بَكرَة أبِهَا، سَتَجِدَهُ في مَعرَكَةِ أُوَكينَا في اليَابَان عَامِ 1945، حَيثُ اغتَصَبت العِصَابَاتِ الأمرِيكِية 1336 امرَأة في العَشَرةِ أيامِ الأولى لاحِتِلالِهِم وِلاَيةِ كَانَاجَاوا بَعدِ استِسلامِ اليابانِيين فِيهَا، سَتَجِدَهُ في الحَربِ الكُورِية مَا بين 26 إلى 29

يُولِيو مِن عَامِ 1950 للمِيلاد هُنَاك في قَرِيةِ نُوجِن في كُورِيا الجَنُوبِية قَامت وحدَاتِ مِنَ العِصَابَاتِ الأمرِيكِية بِقَتلِ 300 إلى 400 مَدَنِي أغلَبُهُم مِن الأطفَالِ والنِسَاءِ والشُيوخِ، سَتَجِدهُ في الفِيتنَام حَيثُ بَلغَ عَدَدِ الجَرائِمِ الأمرِيكِية المُوثَقة لَدى البَنتَاغُون 360 مَجزَرة وعلى رَأسِهَا مَجزَرة مَاي لاي والتي رَاحَ ضَحِيتهَا 504347 مَدَنِي في الفِيتنَام، سَتَجَدَهُ في يُوغوسلافِيا حَيثُ أزهَقَ حَلف النَاتُو الأمرِيكي 5000 مَدِنِي، سَتَجِدَهُ في مَا يَسَمَى الحَرب على الإرهَاب ولَكِن أين هَذِهِ المَرة يا حَلو!! ..

بينَمَا كَان الضَمِير الأمرِيكِي يَبحثُ عَن النِفطِ في العَالم، فَقد استَعرضَ عَضَلاتَهُ في بَاكِستَان وأفغَانِستَان واليَمنِ والصُومَال،

والنَـصِيب الأكبر الـذِي يَنزِفُ دَمَـاً نِفطِيـاً مِـن ضَمائِرهَم كَان في العِراق حَيثُ قَـدرَت الجِهَات المُختَـصَة بِإحـصَاءِ الأرواحِ البَـشَرِية ومُخلفَـاتِ آلاتِ الطَحــنِ والــسَحقِ الأمرِيكِيــة أنَ قَتَلـى العِراق على سَبِيل المَزَحة الغَربِية بَلغَ 2 مِليون مَـدَنِي مِنذُ بِدايَةِ اندلاعِ الحَربِ في عَـامِ 2003 للمِيلاد..

إن كَـانَ الـضَمِير الأمِرِيكِي في أكيَـاسِ قُمَامـة ومُلقـى على الـدِمَاءِ الرَائِبـة على مَـرأى مِـنَ العَـالم، فِيـا سَـعَادَتنِا بِالـضَمِير العَرَبِي، هَـذا الـوَهم العَرِبي المَفقُـود، والـذِي لـم نَـرهُ إلا في شِـعَارَاتِنَا وأحلامِنَـا الوَهَمِيـة، فَقـد فَقـدنَاهُ في وَعَد بالفُور..

هَـذَا الوَعِـد الـذِي بَـاع العَـرب فِيـهِ فَلـسِطِين

للیَهُـود وتَقَاسَـمُوا الكَعكَـة الإسـرائِيلةِ نَخـبَ تَـشتُتِ الأخُـوة الفِلـسطِينِيين في كُـلِ أصـقَاعِ الضَمِير العَرِبي..

عِنـدَمَا كَـانَ بَقَايَـا الـضَمِير العَرِبـي يَغـطُ في سُـبَاتٍ عَمِيـق في 2 نُـوفَمبر مِـن عَـامِ 1917 للمِـيلاد، أرسَـل آثَـر جِـيمس بَـالفُور رِسَـالة إلى ليونِيل وولترَ دي رُوتِيشِلد، بُشِر فِيهَا إلى تَأييدِ الحُكُومَة البِرِيطَانِية بإنشَاءِ وَطن قَـومِي للیَهُـود على الأرَاضِي الفِلسطِينِية، وكَان عَـدَد اليَهُـود آنَ ذَاك لا يَتَجَاوَز 5% مِن مَجمُوعَةِ السُكَان .. وعلى هَذِهِ الحَادِثَة قَامَ الكَيَان الصَهِيونِي على أرضٍ تُعَدُ شَرفَاً للعَربِ والعُرُوبَة، ويَقُول المَثَل الآنِي:

مَـن رَأى شَـرفَهُ يُغتَـصَب يَحـرُم عَلِيـهِ الحَـدِيث

عَن الضَمِير، لأن ضَمِير حُكُومَاتِنَا قد قُيد على سِجَلات الخَوَنة مِنذُ أُطِلقَ الوَعد المَزعُوم ..

أنَا هُنَا، هَل تَسمعنِي .. !

الصَبر،

أنَا هُنَا، هَل من أحدٍ يَسمعنِي.. !

أنَا مَدِينٌ لَكَ إلى هَذِهِ اللحَظة بِأنَك تَحمَلتَ جَزَعِي، لَكَ في عُنُقِي دَينٌ في حَالِ خُرُوجِي مِن هَذِهِ الزِنزَانة، طَبعًا هَذَا إن خَرجت يا صَدِيقِي، فَالمَعرُوف في المُعتَقَلاتِ السُورِية وخَاصَةً المُنفَردِاتِ، بِأنَ الدَاخل مَفقُود والخَارج مَولُود، حَسنَاً الدَين الذِي ألزمتهُ لِذَاتِي في حَالِ إن رأيتُك وجَلستُ مَعكَ في ذَاتِ حُرِية سَأنصِتُ لَكَ لأستَمعَ إلى هُمُومِكَ، فَصَبركُ لن أنسَاهُ أبدَاً، كَمَا أنَنِي لَن أنسَى هَذَا المكَان الذِي أستنشِقُ جَلدَهُ بِصُعُوبَة لن تُقَاوم، هَذا المكَان يُذَكِرَنِي بِبَطنِ الحُوتِ

والكُتُـبِ الـسَمَاوِية التي تَحـدَثَت عَـن النَبِي يُونس عَلِيهِ السَلام، يُحكَى بِأنَ هَذَا النَبِي بُعِثَ إلى بَنِي إسرَائِيل، وكَان اسمُهُ كَمَا ذُكِرَ في سِفرِ يُونَـان، بِـأنَ اللهُ أرسَـلهُ إلى أهَـلِ نَينَـوى وهَيَ مَدِينَـة كَبِيرة تَقَـع على نَهـرِ دِجلـة، ويُعَـد النَبِي يُـونس بِأحـدِ الأنبِيـاءِ الإثنِي عَـشَر الـصِغَار في التَنَـاخ وفقَـاً للتَقَالِيـد، كَمَـا أنَـهُ في الإسلامِ لـهُ أهَمِية عَظِيمة لأنَهُ ذُكِرَ في القُرآن، الحَاصِل في هَذَا النَبِي بِأننَا بيننَا وبَينَهُ قَواسِم مُشتَركة في المكَـانِ لا في الزَمَـانِ، فَرُبمَـا تَختَلـفِ الأزمِنَـة والكِن الـضَحِية قِـصَة عَبَرت التَـارِيخ ضَحِيتهَا مَظلوم، كَمَا أنَ النَبِي يُونِس لـهُ قَـضِية ألا وهِيَ تَوحِيـد الآلِهَـة كَـذَلك أنَـا لِي قَـضِية ألا وهِيَ حُرِيتِي وكَرامَتِكَ أنتَ، نَعَم أنتَ يَا مَن تَسمعَنِي

أو تَقرَأنِي، النَبِي يُونس بُعثَ لتَحرِيرِ البَشَر مِن عُبُودِيـةِ مَـا لا يَـسَتحِقِ العِبَـادة لِعبَـادَةِ آلِهَـة تُقدسُـكَ كَإنـسَان وتَحفَـظ حُقُوقـكَ كَمُـواطِن وتَضَبطُ تَمردُكَ كَطَاغِية، وأنَا هُنَا .. لِما يَا تُرى !! .. مِن أجَلِ أنَ تَعِيشَ في وَطنٍ يَحفَظُ صَوتَكَ ورُوحَكَ مِن عُبُودِية الطُغَاة والحُكُومَاتِ التي تَمتَصُ رَحِيقَ خَيرِكَ وخَيرِ غَيرِكَ..

سَتَقُولُ لِي بِأنكَ على قَيدِ الحَياة ولا يَنقَصُكَ شَيءٍ وتَكفِينَا هَذِهِ البَحبُوحَة مِنَ الأمَان!! ..

أمَان مَاذَا يَا هَذَا ؟..

مُقَابِـل الأمَـان .. أو العُبُودِيـة التَي تَعـيش بِهَـا، تُـسَلم رَأسَـكَ لـسَياف بِلا مُقَابِـل، يُحَاصِـصُكَ لُقمَتَك، ويُضَاجِعُ أفكَارِكَ على فِراشِ دِمَاغِكَ، وحَتى الأوكِسجِين يَسلبُهُ مِن رِئتِكَ، وإن كُنتَ

لا تُــصَدِق ولا تُرِيــد أنْ تَــستَيقظ أتمنَـى أن تُحـصِي فَـواتِير الكَهرُبَـاءِ والمَـاءِ ورُسُـومِ أشَـياءٍ أنـتَ تَعرِفُهَـا، وعِنـدمَا تَنتَهي أخبِرنِي كَـم بَقِي مَعَـكَ مِـن مُرتَبِـكَ الـشَهري الـذِي تَتَقَاضَـاهُ في مَعَالِفَهُم الحُكُومِية!!

حَــسَنَاً .. لا تُرهِــق الحَاسِــبة ولا مُعَادَلاتِــكَ الجُنُونِيــة، أخبِرنِـي عَــن مُـدَرائِكَ في العَمَـلِ والأخطَبُوطَـاتِ الوَهمِيــة التَي بَنــت فِيلاتِهَــا وأنشَأت مَصَانِعَهَا وخَزَنت في حِسَابَاتِهَا أطنَانٍ مُطَنَنة مِن أموَالِ الحَرامِ والرَشَوة والاختِلاسِ والنَشلِ والنَهبِ وعلى عِينَك يا تَاجِر.. !!

فَمن يَسَألُهم عَن هَذِهِ الكَوارِث والسَرِقَاتِ في وَضَحِ النَهارِ وعلى مَرأى الوَطن المُفلس ؟..

أنتَ مَثَلاً.. !!

لأنَكَ بِلا كَرامَة ولا ضَمِير، رَضِيتَ بِالصَمتِ والخُنوعِ وإخفَاءِ صَوتِكَ وشَهَادَتِك، ولأنَ رُؤيتِكَ لِكُلِ هَذِهِ الجِنَايَاتِ في دَوائِرِ الدَوَلة، رَكِبُوكَ ورَكِبوا أبونَا وأبو أبونَا، فَإذَا كَانَ شُرطِي مُرور يُلفِقُ جِنَاية حَادث سَير بخَمسَة وعَشرينَ لَيَرة سُورِية، ويَضَعَهَا في خَزِينَة مُكَدَسَة بِالرِشى والنَصَبِ والاحتِيالِ، فَمَا بَالُكَ بِقَائِدِ شُرطَةِ المُرورِ في دِمشق مَثَلاً.. !!

و لأنَكَ تَعيش في نِظَامٍ اشتِراكِي قَد بَالَ عَلِيهِ الدَهر، ولا تَعرِف مِن زَعِيقِهِ سِوى الشِعَاراتِ والهُتَافَاتِ، تَتَسَاءلُ بَينِكَ وبَينِ نَفسِكَ هَل السُؤَال في الدُولِ العَرَبِية حَرام ؟

نَعَم حَرام .. ولأن تَسَأل أي مَسؤولٍ مُنتَفِخَ الصِيتِ في حِسَابَاتِهِ المُتَرَاشِقَة في البُنُوك، مِن

أينَ لَكَ هَذَا ؟، كَمن لَفَفتَ على عُنُقِكَ حَبَلَ مِشنقَتِكَ..

وَحدَهَا كَوكَبِ الكُونِ عَامَة والشَرقِ خَاصَة السَيدة العَالمِية صَاحِبَةِ الحُنجَرة الذَهبية مَن جَعَلت للصَبرِ حُدُود، رَاحَت أُم كُلثُوم تُغَنِي لِصَبرِنَا:

إنمَا للصَبرِ حُدود .. ولَو أنَهَا عَاشَت إلى زَمَنِنَا هَذَا لَغَنى لَهَا الشَعب العَربِي ذَات الأغنِية التِي شَدت مِن تَحمُلِ حُكومَاتِنَا:

فَات المِيعَاد يا سِت الكُل..

الفَسَاد وَباء كَدَاءِ السَرطَان لَيسَ لَهُ دَواء إلا الجُرعَاتِ الثُورِية واستئصَالِ جَمِيعِ أورَامِ العِملَاقَة كَالأنِظمَة العَربِية وحُكَامِهَا الأوغَاد

الـذِين أعَـادُوا المُـواطِن العَرَبِـي إلى العَـصرِ الحَجَري، أرَانَا الله بِهِم يَومَاً أسَـودَ كَيومِ مُعَمرِ القَذَافِي وحُسنِي مُبَارك..

و لِأنَكَ لا زالَ ضَمِيركُ في تِعدَادِ الأحَياءِ وَطنِيَاً، سَـتلتَهِمُ الـصَبَرَ مع كَافَـة صَبَاحَاتِكَ ووَجَبَاتِـكَ المَـسَائِية، تَمَامَـاً كَـصَبرِ النَبِي يُـونِس عِنَـدمَا ابتَلعَـهُ الحُـوت وبَقِـي في بَطـن البَحـرِ أربعَـونَ يَومَـاً كَمَـا ذَكَـرت كُتُـبِ التُراثِ الدِينِيـة، وهُنَـا يَكمِنُ قَاسِمٌ مُشَتركٌ آخَـر ألا وهُـوَ البَطنِ .. هُـوَ النَبِي في بَطـنِ الحُـوت وأنَـا في بَطـنِ الـسِجنِ والمُـواطنِ العَرَبِي في بَطـنِ الأنظِمَـة القَمعِيـة الدِكتَاتُورِيـة التي لا تَفهَـم إلا لُغَـةِ المَـصَالحِ والذَبحِ والنَفِي والقَتلِ والتَشَرِيد..

و لأنَنَـا كُـسَالى ومُهَيَئِـينَ للتَروِيض، اخَترعَ لَنَـا

عُلمَـاءِ الأديَـانِ والطـبِ النَفـسِي كِذبَـة أُخـرى اسـمُهَا الـصَبر، ومَـع أنَـكَ مَجنِي عَلِيـكَ فَأنـتَ صَـابِرٌ صَـابر.. يَعنِي سَتـصُبر ولـو بِالحِـذَاءِ العَتِيـق، وعلـى هَـذِه الكِذبـة ألفَـوا الكُتُـب والمُجَلَـدَاتِ، وأقَـاموا على آذَانِنَـا المُحَاضَـراتِ والنَـدَواتِ، وكُلُـهُ يَـصبُ في مَـصَالِحِ الطُغَـاة، ونَظَرِيتِي تَقَول:

بِـأنَ الـصَبر أدَاة مِـن أدواتِ الـسُكُوتِ علـى البَاطِـلِ إن كَـانَ يَعِـيشُ في مُـستَنقعٍ يَـسبحُ بِالفَسَاد..

و في مِثِـلِ هَـذِهِ الحَالـة مِـن الـصَبر سـوفَ تَكتَـشُف بِأنَـكَ قَـد خَسرت كَرامَتَك وضَـمِيركَ وبِعتَ فِكركَ وحُرِيتكِ لِرُعَاةِ الأنظِمَة العَرَبِية، لا تَقُل لِي مَا هُوَ الحَل ؟، المَرضُ فِينَا والـدَاءُ

تَفشَى بِنَا والدَواءُ سَهلٌ ولَكِن بِحَاجة إلى شَجَاعة وعَدمِ الخَوفِ مِن المُوت، دَواؤنَا لَيسَ عَقَاقِير كِيمَاوِية بَل أفعَالٌ فِيهَا شَهَامَة وقَضِية تَردُ لَكَ كَرامَتَكَ وحُرِيتكَ، لن تفهم مَا مَعنَى أن تَكُونَ ذُو كَرامَة كَمَا فَهِمهَا الشَاعِر الفِلسطِينِي الشَهِيد عَبدِ الرَحمَن مَحمود، حَيثُ نَظم لَنَا مَزِيجاً مِن كَرامَةِ الإنسَانِ العَرَبِي بِأبيَاتٍ لا يهوَاهَا إلا مَن كَانَ ضَمِيرهُ حَيَاً واستَمعَ القَول وهَوَ شَهِيد:

سَأحملُ رُوحِي على رَاحَتِي .. وأُلقِي بِهَا في مَهَاوي الرَدى

فإمَا حَيَاة تَسرُ الصَدِيق .. وإمَا مَمَاتٍ يَغِيظُ العِدا

و نَفسِ الشَرِيفِ لهُ غَايتَان .. ورُودِ المَنَايَا ونَيلُ

المُنى

لَعمـرُكَ إنِـي أرى مَـصرَعِي .. ولَكِـن أغـذُ إلِيـهِ الخُطَى

أرى مُقلَتِي دُونَ حَقِي الـسَلِيب .. ودُونَ بِـلادِي هُو المُبتَغى

يَلـذُ لأُذنِي سَـمَاعَ الـصَلِيل .. يُهيجُ نَفـسِي مَسيِلَ الدِمَا

و جِـسمٌ تَجَـدَّلَ في الصَحـصَحَانِ .. تَنَاوشَـهُ جَارِحَاتِ الفَلا

فَمنـهُ نَـصيبٌ لأسَـدِ الـسما .. ومِنـهُ نَـصيبٌ للأسدِ الشَرى

كَـسَا دَمَـهُ الأرضُ بِـالأرجُوان .. وأثقَـلَ بِـالعِطرِ رِيحَ الصَّبا

و عَفَّـرَ مِنـهُ بَهيَّ الجَبِـين .. ولَكِـن عُفـاراً يَزِيـدُ البهَا

و بَانَ على شَـفَتَيهِ ابتِسَـام .. مَعَانِيهِ هُـزءً بِهَـذِي الدنا

و نَـامَ لِـيحلُمَ حُلـمَ الخُلـود .. ويَهنَـأُ فِيـهِ بِـأحلى الرُؤى

لعمـرُكَ هَـذَا مَمَـاتِ الرِجَـال .. ومَـن رَأى موتـاً شَرِيفَاً فَذَا

أنَا هُنَا، هَل تَسمعنِي .. !

وَطن مُعطَر،

أنَا هُنَا، هَل مَن أحدٍ يَسمعنِي.. !

قَـالوا بِـأنَ لكُلِ وَطـن عِطـرٌ يُحَـدِد اتجَاهَـات الأشَـواقِ في بِطَانَـةِ كُلِ مُـشَتاق، ولِكُلِ تُـرابٍ عَبَق مُتَرسَـب في ذَراتِهِ، فالإنسَانُ كَسَفِينة في هَـذَا الكـون المُتَرَامِي بِدَقَـةِ وَطَنِـهِ الـذِي يـسَيرُ على أمـوَاجِ حُبه لـهُ، حَواسـهُ كَأشـرِعة قَائِمَـة على بُوصَـلةِ القَلـبِ، والرِيـاحِ التي تَهـبُ بُـكَ وأنـتَ تَطُـوي حَقَائِـبَ سَـفَرك على أطَـرافِ أوطَانٍ لم تَعتَد على رِيَاحَهَا سَتُلقِي بِكَ طَرِيحَاً على فِـراشِ عِطـرِ الـوَطن سَـقِيمَاً مُـضَمَخاً بِالذُنُوب ، كَم أنتَ عَارٍ مِن وَطَنِكَ ومُجَردَاً مِن أحَلامِـكَ خَـارِجَ أسـوَارِ عُـشِكَ، ذَلِـكَ العُـش

المكسُوِ بقَشِ الـذَاكِرة المُشَبعِ بِالفَسَاد الـذَي أسـمَينَاهُ وَطـن ، ولَأنَ وَطَنِي تتَغـشَاهُ الكَـوارِث والخَـراب، فِإنَ العَالم مُلـزم بِأن يُلقَـب سُـورِيا بِرَائِحَةِ اليَاسَمِين..

نَعَـم إنَـهُ مُجبَر بِـالرُكُوعِ والخُـضُوعِ لِمَـا آلَ إلِيـهِ حَـال اليَاسَـمِين عِنـدمَا حَـطَ بِأحمَـالِ عِطَـرَهِ ونَـصَاعِ زَهـرِهِ ونَقَـاءِ شَـتلَتَهِ على بَـلاطِ بِـلادِ الشَامِ، ورَغمِ أنفِ الطُغَاة الذِين أوصَلونَا إلى حَيرَةٍ بين حُـبِ الـوَطن وكُرهِـهِ خَـرجَ اليَاسَـمِين مِن بينَ صُخُورِ الفَسَادِ لِيعطِينَا دَرَسَاً بِعنوَانِ:

كَيَفَ نَعشَقُ الوَطن ونَحنُ خَلفَ أنقاضِ المَلَحِ

و لأنَنَي لا زِلتُ هُنَا وعلى قَيدِ الظَلامِ، فِإنَنِي لا زِلتُ وَاقِفَاً على رَوائِحِ النَتَنِ ووَقَاحَةِ القُضبَانِ الجِدَارِيـة أو التَوابِيـتِ الانفِرادِيـة على نِـصفِ

ظلي، بَل في شَفَى قَبرِ على مَرأى الوَطن..

فَكَم أستَحِي مِن صَبرِ اليَاسَمِين المَغروسِ بِبَيَاضِهِ على سِيوفِ القَتَلة المُتَشَرِبة بِدِمَائِنَا !، وكَم أخجَلُ مِن عِطرِهِ الذِي عَانَقَ قِبَابَ المَسِيح المُرفرِفَة في صَوامعِ السَحرِ المَنسِية على قُصَاصِةِ مصحَفٍ، كَم أمَرغُ حَظِي المَسجُون أمَامَ قَامَةِ العَزفِ على رِيحِ الوَطن على عِطرِ الزَمن..

فَأنَا هُنَا قُبَالة كِيلو مِترٍ مِن تَأخُرِ عَقَارِبِ سَاعَةِ المَوتَى، كَمَا اليَاسَمِين هُنَاك فَوقَ قاسَيونَ بِألفٍ وأرَبعَة مِئةِ ثَانِية مِنَ السَراب، فكَالسَرِبِ نَحنُ قَائِمونَ بِبَياضِ قُلوبِنَا بِبُهَاقِ زُهُورِنَا على عطرِ الوَطن، كِلانَا يَحمِلُ أمتِعَةَ الصُمُودِ أمَامِ فُوهَاتِ المُتَمرِدِينَ على النُورِ

على السَعَادة على أشبَاحِنا، كِلانَا مُتعَبونَ مِن رَوائِـحِ الجُثَـثِ وضَـحَايَا الأبرِيـاء مِـن جَنَـائِزِ الظُلمِ والتَوابِيتِ على أكتافِ العَواصِفِ..

للـوَطنِ أوتـار تَعـزِفُ لَنَـا تـارة ولتُبكِينَـا تَـارة، ولتُـضِحكَنَا تَـارة أُخـرى، وأجمَـل مَعزُوفَـاتِ الوَطنِ هِيَ سَمفُونِيةِ عِطرِهِ ومَذَابحِ ظِلهِ الذِي يَتخَفَى فِي لُبِ قِنَاعَهِ حُكَامَنَا المُتَوجُونَ بِالدِمَاء

أسـوءُ مَعزوفَـةٍ هُـوَ الرَحِيل إلى بَلـدٍ بَـدِيلٍ وإلى خُبزٍ ثَخِين قَـد عَجَنَتهُ أيَادِي الهَارِبِينَ مِن غُبَارِ الطَحِين وإلى عِطرٍ مُعدَاً لموتَى المَنَافِي والمَهَاجِرِ

مَا مَعنَى أن تَكُونَ هَارِبَاً مِن عِطرِ ذَلِكَ الوَطن الذِي يَحملُ في رَحمِهِ مَلايِينِ النُطَفِ وأشَلاءِ اليَتَـامَى والأيَـامَى والمَظلُـومِين وأشِـيَاء فـي ذَاكِرتِكَ وقَـد لا يَشفَع لرَحِيلكَ لا ظِلِ الـوَطن

ولا عِطرهِ، فلا عطِر كَعطِرِ تُرابُك خَارِج حُدُودَ الـذَاكِرة غَير عِطرِ وَطَنِكَ، وَحـدَهُ الـوَطن مَـن سَيُجَردِكُ مِنَ الآمَانِ في حَالِ فِرارِكَ مِن عِطرِهِ

سَتَموتُ جُوعَا..

سَتُقتَلُ ألماً..

سَتفَنى خَوفاً..

سَترتَجفُ بَردَاً..

الرَاحِلـونَ مِـن الـوَطن كَـالمُختَفِين قَـسرِياً في أنفَـاقِ المُعـتَقلاتِ العَربِيـة، الهَـارِب مِـن عِطـرِ الوَطن كَالفارِ مِن حُضنِ أُمِه، ورَغم رَائِحَةِ نَتنِ الفَسَاد وقَذَارَةِ المكَان الذِي يَأكُلُ ويَشربُ مَعِي إلا أنني سَعيد، لا تَقل لِي لمَاذا سَعِيد..!

سَعِيد لأنَ تُهمَتِي تُهمَة شَرف..

بِقَلمِي كَتبتُ عن كَرامِتي وكَرامتكَ، عن حُلمٍ يُراودنِي بِأن نَعِيش في وَطن خَالي مِن نَتن الطُغَاة، ومُمتلئ بِرَوائحِ اليَاسَمِين، فعِطر الشَام يُعادِلُ آلافِ العَقاقِير التي تُعَد في عَاصمِة المُوضَة والعُطور بَارِيس..

عُذراً بَارِيس..

لَرائِحةِ دَمشق في خَياشِيم قَلبي أجمَل وأنقَى مِن جَمِيعِ عُطُراتِ عَواصِم العَالمِ عَن بَكرةِ جَدِهَا، ومَن مِثلِ عَاصَمِة اليَاسَمِين عِندمَا تَتَبرج بِزُخرفَهَا وتَتَأنق بِياسَمِينها وتَطَرب بِفَيروزِهَا في كُلِ صَباحٍ جُنونِي.. !

إنهَا قُوةِ العِطر وصَلابَتِهِ أمَام عُفونَةِ الفَسَادِ السِياسِي وقَهر أبنَاء الوَطن مِن العِصَابة المُغتَصِبة للبِلاد، يَقُولونَ لكَ سَاسَة العُطور

بِـأنَ العِطـر مُستَحـضر يُـصنَع مِـن المَـوادِ الطَبِيعِية وعلى الأغلب مِن المَوادِ الكِيمَاوِية أو الاصطِنَاعِية، أو لَعلهُ مَزِيج يُصَنع مِن كليهمَا..

إلا عِطر دِمَشق يا سَيدي..

تُركِبُ لَنَا العَاصِمة العَتِيقة في كُلِ مَهبٍ على أعتَابِ فَجرِهَا شَيئاً مِن رائِحَةِ تُرابِهَا ومِن زَيتِ نَدَاهَا ومِن مِلحِ مِياهِهَا ومِن غَفوةِ بُنِهَا ومِن شَـذَا يَاسَـمينِهَا ومـن ألحَـانِ الرَحبَـانِي ومِـن صَـوتِ سَـيدِة المَقَـامِ الـشَاهِقِ فَيروز مَزِيجَـاً رَوحَانِياً لا يُشَفى مِنـهُ القَرِيب ولا يُعَافى مِنـهُ الغَرِيب..

في الشَامِ يَحبُو العُطر مِن كُلِ ثُقُوبِ المَاضِي، ويَتَجولُ العَبَقُ مُتَجَرِداً مِن العَوِيل الصَاخِب بِلا حُرَاس، تَحرسُ العَاصِمَة القَدِيمة أبوَابٍ

أزَلِيـة لِكُـلِ بَـابٍ عِطـرَهُ المَبحُـوحِ في مَنَـافِسِ الـنَفسِ، وبِينَ كُلِ جِـدَارٍ وجِـدَار نُوتَـاتٍ عِطرِيـة تَـضربُ أوتَـارِ القَلـبِ وأصَـابِعَ النَـبضِ، وفي خَفَايا أزقَةِ ومَتَاهَاتِ المَدِينَة القَدِيمَة يَتَصبَبُ العِطرُ مِن جَبِينِ التَارِيخِ كَمَا يَتَصَبَبُ ضَجِيجَ السُكونِ مِن جَبهَةِ المكَان..

فَمـن اشـتَمَّ ذَلِـكَ الـسِحر المَعقُـودِ على أقفَـالِ الأبـوابِ المُحَـصَنة بِـالنُجومِ البَـشَرِية التـي أجهَـدت أروَاحِهَـا في تَقـدِيمِ الأنفُـسِ والأرواحِ والأمـوالِ لِـصَونِ هَـذِهِ البُقعَـة مِـن الطَهـارة .. فَقـد أمِـنَ حُبهَـا وعِـشق مَوارِبَهَـا .. سَـتجِد على أعتَـابِ كُـلِ بَـابٍ شَـيئاً مِـن عَبـقِ الأنبِيـاء والـصَالحِين والأولِيـاء والقِدِيـسِين وآلِ بِيـتِ رَسُـولِ الله وأهـلِ اللهِ والثُـوارِ والمُجَاهِـدِين

والعُلمَاءِ والمَجَانِين..

لا تُصَابُ بِالدَهَشَة أن أجَهَدتَ أنفَاسَكَ شَذَا النَبِي يُوحَنَا إلى ممرَات بِبَابُ تُومَا، ولا تسُقط في كَوالِيسِ الغَرابَة إن أسَركَ فَوحِ ابنِ القَيمِ الجَوزِية وأنتَ تَتَخَطَى أعتَابِ بَابِ صَغِير، ولا تُجَنُ مِن الذُهُولِ إن قَادَكُ فُضُولَكَ إلى بَابِ تُومَا وتَعَانَقت رُوحَكَ بِغَفوةِ القَدِيسِين، وإن قَلبَتكَ الطُرقَاتِ الضَيقَة وأوصَلكَ الشَغفَ إلى بَابِ مُصَلى ووَقَعتَ صَرِيعَاً على أبخِرَةِ المِسكِ التي تَتَأجَجُ مِن خَلفِ مَقَامَاتِ آل بِيتِ رَسُولِ اللهِ فَالذنبُ ذَنبُكَ..

و أنَا هُنَا في الرُبع الخَالي للعَتمَة .. مُشتَاق إلى عِطرِهَا وَحدَهَا..

أمُي ونَفحَةِ كَفِهَا..

شَالِهَا وعِطِر ثَوبَهَا..

سِجَادِةِ صَلاتِهَا وعَبِير سُبَحتِهَا..

فَكَمَا الأوَطان لَهَا عِطر.. كَذَلِكَ الدَعُواتِ الصَاعِدَة بِحَنَانِهَا وأمَانِهَا مِن أفَواهِ الأُمَهَاتِ إلى السَمَاء لَهَا شَميمِ

آه كَم أنَا غَارِقٌ في نَتنِ الأسمَاءِ الغَير مَعرُوف مَصِيرهَا ، فِيا صَدِيقي أنَا هُنَا، هَل تَسمَعنِي !

الحُب،

أنَا هُنَا، هَل مِن أحدٍ يَسمعنِي.. !

الكِذبَة التَي نَبحثُ عَنهَا لإشبَاعِ شَهَواتِنَا ألا وهُوَ الحُب، الإنسَان عِندمَا يَشعُرُ بِالجُوعِ يأكُل مَا يَشتَهِيهِ إن وُجدَ ذَلِك، وإذا شَعَرَ بِالعَطَشِ لن يَمنَعَهُ مَانع مِن الشُربِ .. وهَكَذا..فَالإنسَان مُمتَلئٌ بِالنَواقِصِ والمُتنَاقِضاتِ، وعِندمَا يَشعُر بالخَلَلِ الذِي يَنتَابهُ حِسّيًا كَانَ أو مَعنَوياً يَتَسَرع بِكُلِ قواهِ العَاطِفِية والجَسَدِية والذِهنِية لإشبَاعِ غَرِيزَته، أتمنَى أن لا تَفهم الغَرِيزة بالشَغفِ الجَنسِي..

الغَرِيزة هِيَ السُلوك الوِراثِي كَمَا أنهَا تُمَثِل

النَزعَة السُلوكِية والآلياتِ الفِسيولوجِية لكُلِ كَائِنٍ حَي على هَذهِ الأرض..

و تَكون هَذِهِ المَيزِة في المَخلوقَاتِ لا في الخَالق، فَآلِهَـة تَـشتَهي كُـل أنـواعِ الغَرائِـزِ كَـالجُوعِ والعَطـشِ والحَـرِ والبَـردِ التَـزاوُج والجـنِسِ والإنجَابِ .. فَـدعنِي أقُـول لَـكَ بِـأن مِثلَ هَكَـذَا آلِهَة لا تَستَحقُ العِبادة..

و بين هَـذِهِ الغَرائـزِ الغَير مَلمُوسَـة شَيء يُطلـق عَلِيـهِ الحُـب، ولا يُحـصَر الحُـبِ بـينِ الـذَكرِ والأُنثَى، ولا بينِ الإنَاثِ للإنَاثِ، ولا بينِ الرِجَالِ للرِجَـالِ، هُنَـاكَ حُـبٌ بينَ الخَـالقِ للخَلـقِ وبـينَ العِبادِ لرَبِ العِبادِ..

آسِـف للمُقَاطَعـة .. كَـم أكـرهُ هَـذَا الوَصـف: عِباد!!

لَـيسَ هُنَـا مَـربَطُ خيلِنَـا .. وهُنَـاك مَـن يُحـبُ الأمـوَالِ والـوَطنِ وقَـضَايَا رُبمَـا فِيهَـا مَـصالح للبَشَرِ كالحُرِيـة والكَرامَـة والعِـزة، وأفكَارٍ رُبمَـا فِيهَـا ظُلـمٌ لِبَنِي البَـشَر كَالعُنـصُرِية والطَائِفِيـة والإرهَابِ والقَتلِ والحَربِ وهَلمُ جَرا..

فَـدَائمَاً نَهَايِـة كُـلِ حُـبٍ إنـدمَاجٍ بـينَ صَـاحبِ القَضِية وبينِ القَضِية نَفسَهَا، خُذ مِثَالاً:

رَجُـل أحَـبَ أُنثَى .. تَزَوجَهَـا وأنجَـب مِنهَـا بَنِـينَ وحَفَدة، على مَا أظُن بَعد أن وَصلَ إلى شَـغَفِ القَـضِية ألا وهِيَ وقُـوعِ الجَـانِي على الـضَحِية وإشـبَاعِ الغَرائِـزِ الـشَهوانِية، أتمنَى مِنـكَ أن تَعود إلى هَذَا السِينَاريو بَعد سَنَوات، سَتعرِف في نِهَايِـة المَطَـاف بِـأن الحُـب قَـد تَبخَـر وبِـأنَ الجَمَال الذِي يَكسو وجُوهِ العُشَاق قَد تَحولَ

إلى تَجَاعِيد وبِأن الشَعر قَد كَسَاهُ البَيَاض والرِقَاب قَد احدودَبت والأسنَانُ قَد تَسَاقَطت

سَتَطرحُ كَثِيراً مِن التَسَاؤلاتِ والإجَاباتِ في مَحل خَبر كَانَ

و خَبر كَانَ في مَحل استفهَاماتٍ ومُجرِياتٍ لِشِيءٍ أسمُهُ الحُب، يا هَل تُرى فهل تَبَخر الحُب وبَقِيت الهَياكِل البَشَرِية مِن بَنِي العَاشِقِين مُنتَصِبَة أمَامَ أحذِيةِ الذُهُول

يا هَل تُرى هل مَن المُستَفِيد في مُعَادَلةِ الحُب ! الرَجُل، أو المَرأة، أم الأجيَال التي جَاءت أغلبُهَا لَيسَ حُبَاً إنَمَا جَاؤوا عَبرَ خَطَأٍ مَطبَعِي أو تَزَاوج قَهرِي..

فَهَذِهِ الأجَيال التِي وُضِعَت مِن أرحَام عَائِلاتٍ

لـم تَلتَـقِ حُبَـاً إنمَـا تَنَاكَحـت مَـصلَحَةً أغلبُهَـا عَـائِلات تُعَـانِي مِـن عِـدَةِ أمـراضٍ عَاطِفِيـة، كَـنَقصٍ مِـنَ فِيتَامِينَـات الحَنَـانِ أو الأمَـان، وسَـتجِدهَا تَتَخـبط وتَتَـشَتت بِـسَبَبِ العُقَـد العَاطِفِية التي تُعَانِي مِنهَا هَذِهِ العَائِلات..

لـنَ أكـذِب عَليك وأقُـول لَـكَ بِـأنَنِي لَـم أهـوِ في شِبَاكِ الحُبِ يَومَاً، سَـأعتَرِفُ لَكَ بِأنَنِي أحبَبتُ مِن هَذَا الكَونِ ثَلاثَة:

أُمِي، وأُنثَى، والوَطن

فَأمَا حُبُ أُمِي..

كَـذِلكَ الحُـب الـذِي ولُـدتُ مَعَـهُ لَقـد اكتَمَلـت مَلامِـحِ الحُـبِ حِـينَ اكتَمَلـت مَلامِحِي في رَحـمِ تِلكَ المَرأة التي أطلقنَا عَلِيهَا كَلمَة:

أُمِي..

فَالمُفَارقَـة في دَرَجَـةِ الحُـبِ بينَكُمَـا سَـتكُونُ وَاضِحة وجَلِية، دَائِمَا كَمَا شَاهدَنَا في مُسلسَلِ الحَياة بِأنَ الأُم هِيَ التِي تُحبُ مِن غَيرِ مُقَابلِ..

تَحبـلُ وتُنجـبُ وتُرضِـعُ وتَـسهرُ وتَعمَـلُ وتَطهـو وتُهيـأُ لَـكَ سُـبلِ رَاحَتِـكَ مَـا اسـتَطَاعت إلِيـهِ سَـبِيلاً لِكَي تَنتَظِر مِنكَ جُملة في حَالـةِ غَـضب وعُقُوق بِعنوان:

أنتِ مَاذَا فَعلتِ لنَا ؟..

لَـيسَ فَقَـط هَـذا مَـا تَفعَلـهُ .. سَـتبتَلعُ جُملتَـكَ كَمَـا تَبتلـعُ سَـيفَاً بـل كَمَـا ابتَلعَـت كَثِيراً مِـنَ التَعبِ والوَجَعِ والسَهرِ، ولَكِن كَوَنَك لا تَعرِف مَدى حُبِهَا لَكَ جَرب وأحِبهَا مِن غَيرِ مُقَابل، لا

تَجعلَهَا آخر أولوِياتِكَ، ولا تَستَجِير بِهَا في المَصَائِب..

هَل رَأيتَ الشَيب كَيفَ كَسَى اسوادِ شَعرَهَا، والجِلدُ المُترهِلُ على مَلامِحِهَا، ضِعفِ البَصر وعَدمِ الاهتمِامِ بالمَنظَر، كُل هَذِهِ الأشِياء قَد دَفَعت ثَمنَهَا تِلكَ المَرأة التي تَقُولُ لَهَا:

مَامَا..

لا تَقُل لِي كَيفَ أُحبُ أُمِي !، ولا تُلحُ عَليَّ لأنَنِي سوفَ أُجِيبُكَ،

يا عَزِيزِي،

أحِبهَا، عِندمَا تَضحَك، عِندمَا تَمزَح، وهِيَ بينِ الفَوضَى في مَطبَخِهَا، عِندمَا تَعقِدُ وِشَاحَهَا خَلفَ شَعرِهَا، عَلى سجَادَةِ صَلاتِهَا، أمَامَ

هَيبَـةِ مـصحَفِهَا، عِنـدمَا تُمـسِكُ بِفنجَانِهَـا لتَحتَسِي نِصفَهُ، عِند انصَاتِهَا لحَدِيثِنَا .. أحبهَا كَمَا هِيَ، ولا يَخلـو صَباحها إلا ووَجهُهَا يُشرقُ على قَلبِي، أستقبِلُ وَجهَهَا وكَفِيهَا بِالقُبلِ وتَردُ عَلِيَ هَذَا الوَابِلُ مِن الرِضَى بِالدَعوات، هَذِهِ الدَعوات بِالذَات كَفِيلة لِفَكِ شِيفرَةِ مِزَاجِكَ إلى الأفضَل، أيَ نَعِيم ذَلِكَ الذِي أُحَدِيثُكَ عَنهُ يا عَزِيزي..

يا صَدِيقِي..

بِحَدِيثِي مَعكَ وأنتَ أمَام نَصَاعِ الوَرقِ وأنَا خَلفَ مُنفَرِدَاتِ الأحرُفِ المُظلِمَة، صَدقنِي بِإنصَاتِكَ لكُربَتِي جَعلتَنِي أبكِي، أبكِي بِصَمت وبِحُب وكَمَا أنَ أُمِي لَهَا نَصِيب مِنَ الحُب..

كَذِلكَ هُنَاكَ أُنثى عَبَرت جِسرَ قَلبِي..

و سَـرَقت لُـبَ أحـشَائِي، ولَكِـن لـم يَكتَمِـل المَشهَد لأنَ العَادَة والتَقَالِيد والدِين فَوقَ كُلَ الحُب ودَهَالِيزه..

تَخَيل بَعدَ أن تَكتَشِفَ بِمَحضِ الصُدفَة، بِأنَ مَـن مَلكَـت جَمِيـع أنفَاسَـكَ، وجَعَلَـت مـن أورِدَتِكَ مَضَخَاً للحُبِ بَدَلِ الدِمَاء .. بِأنَ دِينهَا يَمنعُهَـا كَمَـا أن دِينُـكَ يَمنعَـكَ مِـن الاقترِابِ منهَا، أو أن تَتَقَدم لِطَلَبِ يَدِهَا، مَع أن الدِينَانِ سَمَاوِيان وكَمَا مَعروف أنَ الأنبِياء أُخوة..

مَا رَأيُكَ بِالمَوانِعِ والكَذِبِ والاستهتَارِ بِالعُقَولِ والأدمِغَة وعَواطِفِ الخَلق.. !

كُلٌ ذَهَبَ في حَالِ سَبِيلهِ، ولَكنِ كُنَا ضَحِيةِ أفكَارٍ ومُعتَقَدَاتٍ وأدِيانٍ وعَادَاتٍ ومُجتَمعَاتٍ كَاذِبة .. واستَمَرت الحَيَاة لاستَبدِالهَا:

بِالوَطن..

هَـل نَحـنُ نُـدَافِعُ ونُقَاتِـلُ ونَـذُبُ عَـن عِـرضِ الوَطن، أم عَن أفكَارِنَا وخُرافَاتِنَا..!

لا يُهِـم، طَالمَـا أَن الـوَطن وبُنيَتـهُ التَحتِيـة هِيَ الـضَحِية في أيّـة حَـربٍ طَائِفِيـة أو سِياسِـية أو فِكرِيــة، إنَ أوطَانَنَــا تَلفِــت وانهَــارت بِــسَبَبِ حَمَاقَاتِنَا الغَير عَقلِية، هَذَا الـوَطن بِحَاجَة إلى عَقَائِــدِ الحُــبِ والــسَلامِ وبَلــسمِ الحَــضَارة والأمَان..

أنَا هُنَا، هَل تَسمَعنِي..!

نَشوَة،

أنَا هُنَا، هَل من أحدٍ يَسمعنِي.. !

لِكُلِ ذِروة مُتعَـة ولَـذة للأشِـياء التِي نَـشتَهِيهَا، ولَعَـلَ هَـذَهِ الأشـياء تَـشتَهِينَا، سَـوف يَتَبـادَر في ذِهنَكَ بِبِدَايَـةِ حَـدِيثِي مَعك بِالنَشوة، مَـا قَبلَ الخِتَامِ الجَمَاعِي للعَمَلِية الجِنسِية التِي تَنقَض بِهَـا العَـضَلات لا إرادِيـاً في مَنطِقَـةِ الحَـوض والتِي تُؤدِي إلى القَـذِف عِندَ الرِجَال وحُـدُوث انقِبَاضَات في العَضَلاتِ المُحَيطَة بِالمهبَل عِنَدَ النِـسَاء، في حَـال حُـدُوث تِلـكَ اللـذَة أو لعَلَـهُ الذَنب يُرافِق الجِسم تَوتر عَضَلي شَـامِل وهَذِهِ المَرحَلة تُسَمى عَودة إلى مَرحِلةِ عَدمِ الاستِثَارة وشُعُورٌ عَام بِالارتِخَاء العَضَلِي والإعيَاء وأغَلبِ

الأحَيانِ النُعَاسِ اللا إرادِي..

و سَوفَ تَتَسَاءل مَاذَا تَقصِد إذَاً ؟

النَشوة تَكمنُ في المَراحِل النِهَائِية لِكُلِ نَجَاحٍ وجُهدٍ واحتِكَاك، لو قُلتُ لَكَ بِأنَ غَدَاً سَوفَ تَكون على مِنَصَةِ أوسكَار لِتَستَلِمِ الجَائِزة بِجَدَارة، مَاذَا سَوفَ يَحدِثُ لَك !

لَربُمَا لن تَنَامِ الليلَ بِأكمَلهِ، وسَوفَ تُصَابُ بِالأرَقِ والقَلقِ، والشُعُور الضَبَابِي مَا بينَ الخَوفِ والفَرحِ، خَوفُكَ بِأنَك لم تُجَرب يَومَاً اعتِلاءِ مِثلِ هَكَذَا مِنصَاتٍ عَالمِية أو مُرتَفَعَاتٍ نُجُومِية، وفَرَحَك سَيَكون بِأن تَحمِلَ ذَلِكَ التِمثَالِ الأُوسكَاري الذِي في أعيُنِ الكَثِير مِنَ الطَامِحِين صَعبِ المَنَال، ولَكِن يا صَدِيقِي لَو أنَكَ لا تَستَحِق هَذَا النَصب التَارِيخي

والنُجُومِي لَمَا وَصَلتَ إلى عَالمِ الأضَواءِ وبينَ عَمَالِقَةِ الهُوليود..

و لِكونِنَا وَصَلنَا بِالمَثَلِ الذِي طَرحَتَهُ عَلِيكَ آنِفَاً إلى بَرِيق التَمَاثِيل الأوسكَارِية، فَتَعَال مَعِي لِنُكمِل المَسِير مَعَا لِنَرى كَيفَ وَصلتَ إلى مُبتَغَاك أو إلى حُلمُكَ..

سَوفَ نَبدَأُ مَعكَ مِن الفِكرة..

دَائِمَاً الأشِياءِ النَاجِحة والاختِراعَاتِ وإبرازِ النَظَرِيات بِدَايتِهَا فِكرة، وهَذِهِ الأفكَار تَتَسَاقط على مَن يَبحثُ لمَخرجٍ للمَللِ في الفَراغ، ودَائِمَاً أقُول بِأنَ الفَراغ مَصدر لإخراجِ الطَاقَةِ وتَجدِيدِ الحِسَاباتِ وتَرتِيبِ سُلم الحَياة مِن البِدَاية إلى أن تَصِلَ إلى مَا تُقدِمهُ وتَخدِم بِهِ الإنسَانِية..

هَل تُرِيد أمثِلة ؟ .. حَسنَاً!

هَـل سَـمِعتَ بِالكَاتِـب والفَيلـسُوف العِمَـلاق العَقَاد ؟

هَذَا العَالمِ الـذِي تَرعرَعنَا على كُتُبه وارتَوينَا مِن أدَبِهِ لم يَتخَرج مِن جَامِعَة ولا مِن ثَانوِية بَـل بِـالعَكس، بَعـد الانتِهَـاءِ مِـن المَرحَلـة الابتِدَائِية، رَاحَ ضَحِية عَامِلٍ في سِكَةِ الحَدِيدِ وفي مَـصانِعِ الحَرِيـرِ والتَغلِيـفِ ومِهـنٍ أُخـرَى لِإعَانَـةِ أهلِـهِ ولِكَراهِيتِـهِ للتَعلِـيمِ الأكَـادِيمِي، فاكتَسَب عِلمَهُ الأدَبِي مِنَ القِراءة والفَلسَفة ذَاتِيـاً، فَكَـانَ يُنفِـقُ جُـلَّ مُرَتَبِـهِ على الكُتُـبِ والـصُحُفِ اليَومِيـة، فَغـدا عِملاقَـاً في الأدَبِ ودَهَـالِيزِ الفَلـسَفَة اللغَوِيـة، وإلى هَـذِا الزَمَـان بَقِيت بَصمَتهُ خَالِدة على جُدَرانِ الزَمَانِ وفي

أذهَـانِ العُلمَـاء بِمُـصنَفَاتِهِ ومُؤلفَاتـهِ، فَكَانـت النَشَـوة بِتصَدُرِهِ عَـالمِ الجَهَابِذِة بِجُهدِهِ وعَـدمِ اكتِراثِهِ لِحَاصِدِينَ الشَهَادَاتِ المُعَلقَة للزِينَة في دُورِ ضِيَافَتِهِم..

هَل سَمِعتَ بأينِشتَاين..!

يَكفِـي بِـأن أقُـول لـكَ بِـأنَهم يُطلِقُـونَ عَلِيـهِ بِالعَالم والفِيزِيائِي الكَبِير وصَاحِبِ أكبَرِ نَظَرِية نِسبِية، فَلقَد أفنَت أُمهُ شَبَابَهَا في تَدرِيسِهِ في البِيت بَعدمَا طُرِد مِنَ المَدرَسَة، ووفَرت لَهُ كُتُبَاً كَثِيرة فَنَهل مِنهَا واستَفَادَ استِفَادة عَظِيمَة، ولا يَخفَى على عَالم مَن يَعرِف هَذَا العِملاق، بِأنَهُ تَأخَر في الكَلامِ عِدَةِ سَنَواتٍ كَمَا أنهُ كَانَ بَطِيءَ الاستِيعَابِ، فَكَانت تَدخُل المَعلومَة إلى خَلايَا دِمَاغِهِ ببطءٍ، وقَد قِيل رغمَ

عَبقَرِيتَهِ التَي ظَهَرت بَعد ذَلِكَ رَسَبَ في مَادَةِ الرِيَاضِيات، هَذِهِ هِيَ النَشوَة التِي أُحدِثُكَ عَنهَا، نَشوةِ التَقدُمِ واستخَراجِ الطَاقَاتِ رُغم نُبَاحِ الفَاشِلين مِن حَولِكَ..

هَل سَمِعتَ بستِيفن كَينغ ؟

هَذَا الكَاتِب العِملاق الذِي حَقَقَ أكثَر مَبِيعَاً في العَالمِ لِكتابهِ، حَيثُ تَم بِيعِ 400 مِليون نُسخَة كَمَا أنَ العَد في ازدِياد، هَذِا الكِتَاب الذِي يَحمِلُ العَدِيد مِنَ القِصَصِ تَمَ تَحوِيلُهَا إلى أفَلامٍ عَالمِية تَركَعُ لَهَا القُلوب، هَذَا الكِتَاب تَم رَفضَهُ ثَلاث مَرات في البِدَاية، مِمَا دَافَعَهُ لِرميهِ في سَلةِ القُمَامَة، ولِحُسنِ الحَظِ أنقَذَت زَوجَتهُ الكِتَاب وعَرَضَتهُ على أحدِ الدُور التي تَنشُر الكُتب وأصبحَ أشهر كَاتب في العَالم،

وكَانـت النَـشَـوة مِـن سَـلةِ المُهمَـلاتِ إلى سُـدَةِ العَالمِية..

هَل سَمِعتَ بِوالتْ دِيزنِي ؟

كَانَـت البِدَايـة المِهَنِيـة في مَـسِيرةِ هَـذَا المُبـدِع بِطَردِهِ مِن أحَدِ الصُحفِ التِي كَان يَعمِلُ بِهَا، ولَكِنهُ كَان في أعيُنِ الجَمِيع فَاشِلاً، وفي أحدِ الأوقَاتِ المَرِيرة تَمَ رَفضِ رُسُومَاتِ مِيكِي مَاوس لِكُونِهَـا مُرعِبَـة جِـدَاً بِالنِـسبَة للنِـسَاء، ولـيسَ ذَلِـكَ وحَـسب، بَـل قِـصَةِ الخَنَـازِير الثَلاثَـة الـصَغِيرة تَـم رَفـضُهَا لأنهَـا تَحتَـوي على أربَعَـةِ شَخَـصياتٍ فَقـط، ولأنَ نَـشَوةِ النَجَـاحِ فَاقـت كُلَ هَذَا الزُعَاق لِحُسنِ الحَظِ لَدِينَا اليَوم أكبر شَـرِكَات دِيزنِي، كَانَ سَـبَبهُ عَـدَمِ الإنـصَاتِ إلى أيّ مِـن مُنتَقدِيـهِ ومَـضَى قُـدُومَاً نَحـوَ تَحقِيـقِ

أحَلامِهِ..

هَل سَمِعتَ بِتُومَاس أدِيسُون ؟

صَاحبِ أكبَرِ مُحَاولاتِ فَشَلٍ في العَالم، حَطمَ الرَقمَ القِياسِي في الإحبَاطَاتِ، فَكَانت النَتِيجَة بِأن وَصَلَ إلى نَشَوةِ النَجَاحِ والحُلم الذِي كَانَ يَعمـلُ جَاهِـدَاً لإنَـارةِ العَـالم عَبـرَ المِـصبَاحِ الكَهرُبائِي، فَعَلى سُدَةِ الحُلم قَال:

لم أفشَل وإنمَا وَجدتُ 10 آلافِ طَرِيقَة لأتَعَلم

هَل سَمِعتَ بإسحَاق نيوتِن ؟

لـم يَكـن هُنَـاك ولا 1 % مِـن نَجَاحِـهِ، كَمَـا أنَ مُـستَقبَلهُ كَان ضَـبابِياً على الـرَغمِ مِـن ذَكَائِـهِ العَظِيم، ومَع ذَلِكَ كُلهِ كَان كَسُولاً في المَراحِلِ الدِراسِية ومهمِلاً إلى دَرجَةِ القَرف، إلا أنَهُ كَانَ

مُولعَاً بِالمِيكَانِيك، وقَد كَان يَخطو بِصُعُوبَة في المَراحِلِ الدِراسِية على الرُغمِ مِن إخفَاقِهِ التَام في دِراسَتِهِ الأكَادِيمِية هَذَا الذِي كَان يُلقِبُونهُ فَاشِلَ عَصرِهِ، أحدَثَ أكبَر نَشوة ثَورِية في العِلمِ عَبر دِراسَتِهِ في الرِياضِيات والفِيزِياء..

هَل سَمِعتَ بِالرَسَام بِيكَاسو ؟

الفَاشِل في جَمِيعِ المَراحِلِ الدِراسِية، الذِي لم يَفعل في هَذهِ الصُفُوفِ سِوى الرَسمِ، أخرجَهُ وَالدهُ مِنَ المَدرَسة في السنِ العَاشِرة مِن عُمُرِهِ، وتَخلى عَنهُ مُدَرِسَهُ الخَاص الذِي وَعدَهُ بِدُخُولِ المَرحَلة الثَانَوِية بَعدَ أن فَقدَ الأمل في تَلقِينه الحِسَاب، وبَعدَ أن نَجحَ بِتَفُوقٍ في امتِحَانِ الدُخُولِ إلى كُلِيةِ الرَسمِ والفُنُونِ

الجَمِيلــة، تَــركَ الكُلِيــة لِــشُعُورِهِ بِالمَلَــلِ والــضَجَرِ، لِيبــدأَ الرَسـمِ دِراسَــة خَاصَــة في بَــارِيس ومَدِريــد، النَــشوة التي وَصــلَ إِلِيهَــا بِيكَاسُــو تِلــكَ اللوحَــات التي تُبَــاعُ في أكبَرِ المَزَادَاتِ العَالمِية، حَيثُ تَصِل أقَل لَوحَة لَهُ إلى مَلايـين الـدُولاراتِ، كَمَـا أنـهُ أصَـبحَ الأب الروحِي لِكُلِ مُحبٍ لِفَنِ والرَسمِ..

عَلى مَـا أظُـن بِـأنَ النَـشَوة في الوصُـولِ إلى الأحـلامِ لا الأوهَـام بِحَاجَـة إلى جُهـدٍ وتَعـب، والإخفَــاق لا يَعنِي بِأننَــا وَصــلَنَا إلـى نِهَايــةِ الهَاوِية، بِل لإعطَائكَ مَزِيداً مِن الفُرص

أُنظُـر إليَّ أنَـا .. في المُنفَـرِدَاتِ الدَكتَاتُورِيـة ولا زِلـتُ أحلُم، رُبمَـا المُدَونَة السِياسِية التي ألقِي القَـبض عَليَّ بِسَبَبهَا قَـد أُتلِفَـت لأنهَـا فَاضِحَة

وكَاشِـفة لـدَمويتِهم، ولَكـنِ عِنـدِي يَقِـين بِـأنَنِي سَـأخرُج مِـن هُنَـا، وسَـأعُود على قَيـدِ الـوَرَقِ والقَلم، لن يَستَطِيعُوا أن يُوقِفوا قَلمِي ولا أن يُخرِسُـوا وَرقِي، فأنَـا هُنـا ولا زِلـتُ هُنَـا أكتُـبُ سُلمَ الحُرِية على ألوَاحِ أفكَاري، وسَـأخرجُ يَومَاً مَا لأكتُبُهَا تَارِيخَاً يَلِيقُ بِالحُرِية..

أنَا هُنَا، هَل تَسمَعنِي ..!

صَوت أعرِفَهُ،

أنَا هُنَا، هَل من أحدٍ يَسمعنِي.. !

أعتَذِرُ لَكَ يا صَدِيقِي، هَل سَمعتَ مَا وَصَلَ إلى مَسَامِعِي !، أم أضغَاثُ أوهَام ؟..

لكِلِ شَيءٍ رَائِحة، مَلمُوسَة كَانتْ أو مَحسُوسَة، مَادِية كَانتْ أو مَعنَوِية، وهَذِهِ الرَائِحة كَمَا تَحدَثَ عَنهَا العُلمَاء:

بِأنهَا عِبَارة عَن مُركَب كِيميائِي مُتَطَاير يتَقَاذَفَهُ الهَواء، وعلى الأرجَح بِتَركِيز مُخَفِض جِداً، كَمَا أنَ هَذِهِ الرَائِحَة يُدرِكُهَا الإنسَان أو الحَيوانَاتِ الأُخَرى بِواسِطَةِ الشَمِ..

يَا صَدِيقِي على الأرجَح وفي اعتِقَادِي بِأنَ الأشِياء التي لا تَشتَمهَا عَبرَ مَنَافِذِ الخَيشُوم

كَذَلِكَ لهَا رَائِحة..

سَتَقُول مَا هَذَا الجُنُون ؟

و أنتَ قُلتَهَا فَلا يَعرِف هَذِهِ الأشِياء إلا مَن وَصَلَ إلى دَرَجَة عَالِية مِنَ الجُنُون سَأعطِيكَ مِثَالاً:

هَل وَقعتَ في شِباكِ الغَرَامِ آنِفَاً ؟، هل تَدَحرجَ قَلبَكَ في قَلبِ أحدِهم سَابِقَاً ؟، هَل عشِتَ نَسَمَاتِ الحُبِ وهَبت على رَاسِياتِ الرُوحِ فِيمَا مَضَى ؟..

إنْ قُلتَ لي نَعم .. قَد حَدثَ هَذَا، فَقد خَطونَا إلى مَرحَلةِ مَا بَعدِ نِصفِ الإجَابة، فَأمَا الإجَابَة تَقُول:

إنَ للمُحبِ أربَعَةِ منَافِذِ لِتشتَمَّ فِيهَا رَائِحَةِ

الـضَحِية ألا وهِيَ المَحبُـوب، وهَـذِهِ الدَرجَـة لا يَصِلُ إلى مِنصَتِهَا الرَاسِية على ذِروةِ الحُبِ إلا مَن تَوحَدَ شَغَفَهُ بِمنَ شُغِفَ لَهُ..

تَقُـولُ الأسـطُورة، وهَـذَا تَحلِيـلٌ دَقِيـقٌ بِـسُرعَةِ عشَرةِ آلافِ جِيادٍ عَاشِقة بِأنَ:

الغَارِق في مُستَنقعِ الغَرامِ يَشتَمُّ بِعينِيهِ وأنفِهِ وسَمعِهِ وفَمِهِ..

فَأمَا رَائِحَةِ العَينِ هِيَ النَظَر، في نَظَارَاتِكَ الأولى كَمـشَهدٍ عَـاطفِيٍ لمَـن شَـاهَدَتهُ على حَـسَبِ المكَانِ والزَمَـان، هُنَـاكَ للجَمَـالِ رَائِحـة آسِـرة يَنقِبضُ لَهَـا البُؤبُـؤ وتَتَحجَـر الأجفَـان، فَتُمطر العَاطِفَة ذَلِكَ العَبق على الخَلايَا الدِمَاغِية في سِـردَابِ العَاطِفـة، هَـذَهِ اللقَطـة بِحـدِ ذَاتِهَـا مَفضُوحَة بين أهلِ الهُوى بِمَقُولةِ:

حُبٌ مِن أولِ نَظَرة..

و رُبمَا اشتمَّت عينِ المُحبِ مِن شَممِ جَمَالِ المَحبُوبِ عِطراً أنسَاهُ حَليبَ أُمهُ وأُمِ أُمِهِ، فَالمُحبُ لا يُلام بِالهَزَاتِ الفَاضِحَة والروائِحِ الذَابِحة التي تُهاجِرُ مِن أناقَةِ المَحبُوبِ اللا مَنطِقِية إلى شَراهَةِ نَظَارَاتِ المُحبِ المُتَشَرِدقةِ بِأولِ خَمرة، إنهَا خَمرةِ الجَمَالِ والكَمَالِ الذِي يُغِيب المَنطِق ويُوقِظُ الغَرائِزِ العَاطِفِية والرُومنسِية، هَذِهِ لَقطَات مِن مَغَرفَةِ العَينِ لِروحِ الجمَالِ والوقُوعِ في شَذَا الشِباكِ العَاشِقَة لمَن أحبَ مِن أولِ نَظَرة، أو مِن أولِ غَرفَة، أو مِن أولِ غَلطة..

و أمَا مَا يَشتَمّهُ الأنف مِن عِشقٍ:

هُو دَائِمَاً في البِدَايَات لأيةِ عِلاقَة عَاطِفِية،

بَعـدَ أن أنتَـشَت العـين وارتَـوت النَظَـراتِ مِـن خَمـرةِ عِطـرِ الجَمَـال، يَـأتِي بَعـد ذَلِـكَ مَهَـامِ الأنفِ، هَذَا المَخلوقِ الغَرِيب الذِي عَن طَرِيقِهِ تُخَزن مَلايين مِنَ العَقَاقِير المُحكَمةَ بِالذَاكِرة، فَكِيفَ لو كَانَ في هَذِهِ الخَزِينة قَارُورة مُمتَلِئة بِالحُب أي عِطرِ الحَبِيب ؟

هَـذَا العِطرِ الوَحِيد الـذِي لا ولـن يُنسَى، رُبَمَـا تأتِيـكَ هَـذَهِ الغَفـوة التي أخَـذَت مَكَانهَـا مِـنَ الـذَاكِرة نِعمَـة بِـدَايُتهَا حُـب ومِـن ثُـمَ انـسِجَام ومِن ثُمَ حُلول ومِن ثُمَ إنجَاب ومن ثم شَغَف، ورُبمَا يَأتيَكَ هَذَا العُطر نِقمَة أو لَعنَة، ولَكن هُنَا لـن تَشعُر بِهَا إلا عِنَدَ الفِراق والانشِطَار، في وِحـدَتِكَ تَأتِيـكَ رَائَحَـةِ الحَـبِ كِـسياط، تَجلـدُكَ وتَقلـب خَلوتـكَ جَهـنم مُـستَعِرة،

وتَجعلُكَ تَكره السَاعَة التِي شَمَمتَ رَائِحَةِ مَن وَقعتَ في هَواهُ، ففي وحدَتِكَ سَوفَ تَصرُخ بِأعلى وَجَعِكَ:

يا لَيتَنِي كُنتُ تُرَابا..

و مَاذَا سَوفَ تُفِيدُكَ الصَرخَاتِ مَا دَامَت رَائِحَةِ مَن رَكَلكَ أو رَكَلتَهُ خَارِجَ القَلبِ، ورَائِحَةِ عِطرِهِ قَد تَشَرَبتَ في كُلِ سَرادِيبِ جَزَعِكَ وحُزنِكَ ؟..

و أمَا الرَائِحَة التِي يَستنشِقُهَا السَمعِ فَحدِث ولا حَرج:

الصَوت، أو صَوتِ المَعشُوقِ عِندمَا يَتَراشَق فُؤادِ العَاشِقِ عَبَرَ سَمعِهِ، فَبينَ آلةِ اللسِانِ وآلةِ الأُذُن وَاسِطَة تُدعَى الصَوت أو رَائِحَةِ

الـصَوت، تَـشتَمُّ الأُذُن صُـوتِ المُحَـب في أولِ لَحظَة أو أولِ كَلِمَة تِلكَ الأحرُف المُعَقَدة ذَات الأشـكَالِ المُختَلِفَـة التِي تَـصُبُ في مُحِـيطِ الأحـشَاء، يَعتَقـدِ المُحـب بِـأنَ البِدَايـة بِدَايـةِ الـسَعَادَة، ولَكِـن في قَنَـاعَتِي بِـأنَ البِدَايَـة هِيَ النِهَايـة لأيِـةِ لَـذة كَلامِيـة أو اعتِرافٍ حَرفي مِـن قِبَلِ المُحبِ للمَحبُوب فَمَثَلاً:

فَمَثَلاً لَو قُلتَ لَهُ أحُبُكَ..

لو وَصَلَت رَائِحَةِ مَشَاعِرِكَ بِكَافَةِ عَتَادِ الأحرُفِ العِشقِية إلى قَلبِهِ، فَقَد انتَهَت اللُعبَة ولا كَلِمَة تُضَاهِي هَذا الاعتِراف بَعدَ ذَلِكَ أيةَ كَلِمَة بَعد

فَالرَوِيـة بِـأخراجِ عَبـقِ الكَلمَـات العَاطِفِيـة يَحتَاج إلى عِدَةِ عَوامِلٍ مُهمَة أعلاهَا الحِكمَة وأدنَاهَـا المكَـان والزَمَـان وجُغرافِيـةِ المَنطِـق

العَقَلانِي لا المَنطق المُعمَى عَليهِ ولَكَأنهُ قَد وَقَعَ على فَرِيسة دَسِمَة، لو قُلتَ لَهَا أو لَهُ:

أنَا أحُبُكَ! ..

خَلص انتهَت الجَولَة التِي لن يَأتي بَعدَهَا جَولة، وقَد أقفَلتَ مُسَلسَلك الرُومَنسِي في الحَلقَة الأولى، مَع أنَ مِثَل هَذِهِ المُسلسَلات بِحَاجَة إلى ثَلاثِين حَلقَة..

و أمَا مَنطقِ الحُبِ في رَائِحَةِ مَنافِذِ الفَمِ:

هِيَ قُبلة في مُواجِهَةِ القِبلة، لمَا بِالذَات القِبلة !، لأنَ فِيهَا صِدق ووَفاء، للقُبَلِ رَائِحَةِ العُرِي الجَبَلِي لتَبَارُز الغُيُومِ مَعَ النَواطِحِ الشَاهِقة، تُجَرد الشِفَاه مِن الكَلِمَات لِتُبتَلع بِنَهَمٍ، في رِحَابِ الوصُولِ على تَمازُجِ الألسُنِ وابتِلاعِ

حُمَمِ اللُعَابِ، يَغِيبُ كُلُ شَيء..

أنَتَ..

و أنَا..

و الحُب..

و الجَسَد..

و الرُوح..

و يُغمَى على القَلب، وتُقَطع الثِياب، وتُحَرك الأيادِي، للوصُولِ إلى السَر، سِرِ عَبَقِ الفِمِ، الذِي غَيبتهُ قُبلَة وأسَكَرتهُ رَعَشة، وأخمَدَتهُ لَحَظة..

انتَهى كُلُ شَيءٍ، مِن بَعدِ أن تَوحَدت الأجسَاد، وغَرِقَت الأكبَاد، واختَلطَت الأعضَاء، بَقِيَ جَسَدِ المُحبِ مُلقَى على تَعبِ مَا بَعَدَ المَعركَة،

والضَحِية كَغَزالٍ مَذبُوحَة على صَدرِ الصَياد، انتَهى كُلُ شَيء،

أُدخِلَ المِبرد في المِكحَل..

و خَمَدَ العَطَش مِن بَعدِ مَسِيرة مِليون وسَانتِي مِتراتٍ على كُثبانِ الكبرِياء، وارتَوت الضَحِية بِالدِمَاء العَذراءِ والجَانِي بِالإعيَاء .. وصَمتَ الكونُ مِن حولِهمَا، ولَكَأنهُمَا كَعبة يَطوفُ حولهُمَا الهُدوء..

أمَا أنَا لا زِلتُ هُنَا .. أشتَاقُ لِرائِحَةِ دِمشق عِندمَا يَجتَاحُهَا النُور، لِصَوتِ جَارتنَا المُطَلقة، لِأشجَانِ نِدَاءِ صَاحِب الدُكَانِ في آخِرِ حَارَتِنَا، لهَمسِ طَلَبةِ المَدارِسِ وهُم يُجدُونَ السَيرِ كُسالى إلى مُستَقبَلٍ مَغبُون، إلى أوراقِ صَحِيفَةِ وَالدِي الصَبَاحِية بينَ أصَابِعِهِ، إلى

رَائِحَةِ النَظَرَاتِ المُشبَعةَ بِالأمَانِ في ودَاعِ أُمِي، إلى زَمَامِيرِ الحَافِلاتِ الغَاصَة بِالعَاصِمة، إلى عَبقِ ابتِسَامَةِ أخَي، وبَراءةِ مَلامِحِ أُختِي، إلى وِسَادَتِي وسَرِيري وكُتُبِي، إلى مَنَافِذَ النُور التي شَقت طَرِيقَهَا إلى بِيتي..

إلى:

الكَرامَة، والحُرِية، والأمَان..

أنَا هُنَا، هَل تَسمَعنِي..!

جُبَنَاء،

أنَا هُنَا، هَل من أحدٍ يَسمعنِي.. !

نَعم جُبَنَاء، لم تَقُل لِي مَن هُم الجُبَنَاء ؟..

سَوفَ أوضِحُ لَك الأمرَ بِسُؤالٍ وَاحِدٍ فَقد..

مَاذَا تَعرِف عَن البَيَاض، أو عَن أيةِ صَفحَة بِيضَاء، وماذَا تُفَسِر اللونِ الأبيَض يا عَزِيزي ؟

سَوفَ يَقُولُون لَك: بِأنَ اللونِ الأبَيض هُوَ لَونٌ حسَبِ المَفهُومِ الحَسِي لإدرَاكِ الألوانِ، لَكِنهُ بِالحَقِيقَة مَجمُوع مِن كَافَةِ الألوَانِ في الطَيفِ المَرئِي، وبِالتَالي فَهُوَ لا يُعد لَونَاً وذَلِكَ مِثلُ اللونِ الأسوَدِ واللوَنِ الرَمَادِي..

و سَوفَ يَقُولُونَ لَكَ: بِأنَ مَنشَأ اللُونِ الأبِيضِ هُوَ الطَبِيعَة، حَيثُ تَكونُ الجسمِياتِ أو

الأليـافِ أو القَطـرَاتِ الـشَفَافَة مَوجُـودَة في شَبَكة أو مَصفُوفَة ومُرَتبة وشَفَافَة ذَات قَرِينَة انكِـسَارِية مُختَلِفَـة بِـشَكلٍ كَبِير، ومِثَـال على ذَلِـكَ كَـالمُوادِ الطَبِيعِيـة البِيـضَاء، كَالـسُكرِ والثَلجِ والسَحَابِ والحَلِيب وهَلُمَ جَرا..

هَـذَا تَعرِيـف واسـتنتَاجِ الفَلاسِـفَة في مَاهِيـةِ هَذَا النَصَاعِ ذَو الأبَعَادِ الفِيزيَائِية..

هَـذِهِ التُرهَـاتِ المُعَقَـدة في التَعَـارِيفِ رُبمَـا تَكُـن وَاضِـحة أو لعَلهَـا مُعَقَـدة، تَختَلـف اختِلافَـاً جِذرِياً في الوَطنِ العَربِي المُقَدس، تِلَكَ البُقعَة المُتَرَامِيـة بِالخُرافَـاتِ ودَهَـاليزِ الـسِحرِ العَـابِرِ للرُعبِ..

البِيَـاض .. سَـوفَ يَقُولـونَ لَـكَ ذُو القَلـبِ الأبَـيضِ، وسَـتُكَفن بِالقُمَـاشِ الأبـيضِ،

والبيَـاض رَايــة للــسَلام والاستِــسلامِ فـي آنٍ واحد، والبياض لِباسٍ للتَقوى ولِباسُ التَقوَى ذَلِكَ خَير، بياضِ الشَيبِ وَقَار، وبَيَاضِ النَبضِ نَقَاء، وبياض العَقلِ حِكمة، وبياضِ الفَراسة حِنكَة، وبياض النظراتِ رَحمَة، هَوَ لَونٌ للزِينَة وللفَرحِ وللحُزنِ وللوَدَاعِ..

و فِي رَأيي هَذَا اللونِ العُذرِي المُغتَصَب في أي تَدَخُلٍ انكِسَاري لَهُ مِن ألوانٍ طُفُولِية، فَهَذَا الونِ ضَعِيف جِداً، فَمهَما تَخللهُ أو وَقَعَ عَلِيهِ أي لَـون سَيخـضَع ويَركَـع ويَخنـع رَغمَـاً عَـن نَصَاعِهِ..

و لَكن في الأشِياءِ الوَهمِية والرِسمِية والشَعَائِرِ الدِينِية فَلهُ وَقعٌ عَظِيم، تَشعُر بِأنَ هَذَا الون مِمحَـاةٍ للـذُنُوب وفي ذَاتِ الوَقـتِ عَلامَـة مِـن

عَلامَاتِ الجُبَنَاءِ، خُذ مِثَالاً:

يَقولُ القُرآن في إحدِى آيَاتِ الحَجِ:

و للهِ على النَاسِ حَجِ البَيتِ مَن استَطَاع إليهِ سَبِيلاً.

و في هَذا المَوسِم بِالذَاتِ تَكمُن مُصِيبَةِ الخَلقِ ويَختَلط الحَابِل بِالنَابِل والفَاسِد بِالصَالح والحَرامِي بِالأمِين، مَع أنَ تَقدِيراتِي بِلَفِيفِ اللصُوصِ والوجُهَاءِ مِن أولادِ الحَرامِ هُم أكثر مَن يَقصد الحَج، لَيسَ غَسلاً للذُنُوبِ ولا تَوبَة صَادِقَة ولا تَرتِيب حِسَابات مَعَ الآلِهة .. بَل مِن أجلِ كَلِمَة وَاحِدة أمَام النَاسِ، هَذِه الكَلِمَة هِيَ كَفِيلة بِأن تَغسِل عِيوبَهُ أمَام أعينِ الظَانِين بِهِ، هَوَ صَاحِب الصَفَقاتِ المَشبُوهة والأموالِ المنهُوبة والوجَاهة والصَدَارة، يَحسُبُ بِأنَ هَذِه

الكَلمَة ألا وهِيَ كَلمة:

الحَاج فَلان..

سَــوفَ تَغــسِل عَــارهُ أو تَغــسِل سُــمعتهُ فـي الـسَرِقَة النَهـبِ وغَـسلِ الأمـوالِ ورَمِـي الجُـنَحِ خَلفَ نِسِيانِهِ..

في مَشهَدِ يَومِ عَرفَة عِندَ المُسلمِين كُلِ الرِجَالِ مُجَردُونَ مِن ثِيابِهِم، كَعُرِيي أنَا أمَامَ الـوَطن، يَكسُوهم البِياض وأنَا مُكَفن بِالظَلام، في ذَلِكَ المَوقــــف التِجَــــارِي أو كَمَــــا أرَاهُ سِــــياحة واسـتجمَام وحَمَـام للـشَمسِ الكُـلُ في تِعـدَادِ الفَائِزِين، فَلا خَسَارة هُنَاك البَتَة..

الخَزِينَـة الـسُعُودِية تَغَـصُ بِـالأموَالِ، الـسَاسَةَ مِـن أبنَائِهَـا اللـصُوص يَتَقَاسَـمُون الكَعكَـة،

ولفِيفَ المُنَافِقِين ومَا أكثَرَهُم الذِين يَرتَادُونَ حَجِ بِيتِ الله مِن كُلِ فَجٍ حَزِين يَكتَسبُونَ السُمعَة، والعجَائِز يَكتَسبنَ خَاتِمة طَاهِرة في أواخِرِ العُمر، الكُلُ يَقِفُ على شَرَهِ نَواِياهُ، إنمَا الأعمَال بِالنِيَات..

و بَعِيداً عن بياضِ التَقَوى، سَوفَ أقفِزُ إلى بياضِ النَوَايَا وأرصِدَةِ اللهِ على أرضِ الله..

في أحَدِ النِسَبِ التِي تُشبِعِ الكُون بِأكمَلِهِ إدَامَاً وخُبزَاً ولَحمَاً، بِأنَ الإحصَائِياتِ الرَسمِية لمَواسِمِ الحَجِ حَيثُ يَقُول بياض جَنِي الأموَالِ:

فَقدَ قُدِرَت إيرادَاتِ الحَجِ لِعَامِ 2014 للمِيلادِ بِنَحوي 73، 31 مِليَار رِيالٍ سُعُودِي، أي مَا يُقَدر 4، 8 مِليار دُولارٍ أمرِيكِي، أي بِنسبَةِ 3% عَن عَامِ 2013 مِيلادِي، وفقَاً لِدِراسَاتٍ صَادِرة

عَـن الغُرفَـةِ التِجَارِيـة الـصِنَاعِية في مَدِينَـةِ مَكَـة، وفي عَـامِ 2012 للمِـيلاد قُـدِرَت إيـرَادَاتِ الحَـجِ والعُمــرة بِــأكثَرِ مِــن 62 مِليَــار رِيــالٍ سُــعُودِي، أي مَــا يُقَــارِب 5، 16 مِليــار دُولار أمرِيكِي، بِزِيــادَةِ نــسبتِهَا 10% مُقَارَنَــة بِعَــامِ 2011، حَيــثُ بَلغَــت حِينَهَــا 57 مِليَــار رِيــالٍ سُـعُودِي مَـا يُقَـارِب 2، 15 مِليَـار دُولارٍ أمرِيكِي، مُـشِيرِين بِـأنَ تِلـكَ الإيـرادَاتِ تُمَثِـل 3% مِـنَ النَاتِج المَحَلي للسُعُودِية..

هَل الله بِحَاجَة إلى كُلِ هَذِهِ الأموَال لَتحِل عَلى مَواكِب الحُجَاجِ رَحمَتهُ وبَركَاتَهُ وغَسلِ ذُنُوبِهِم ومَاضِـيهِم وأسـمَائِهِم المُـصَنَفة علـى رُفُـوفِ النَصبِ والاحتِيال..

سَوفَ أعُود للبَيَاض، وإلى نَصَاعِ السَلامِ الذِي

نَفتَقدَهُ، ذَلِكَ الطَائِر المَفقُود، ولَكِن مَا عَلاقَةِ البياض بالجُبنَاء !؟..

لَقد وَصلتُ إلى دَراسَاتٍ بِأنَ الجُبنَاء مِن طَواغِيتِ أُمَتِنَا لا يُحبُونَ البياض ولا النُور ولا نَصَاعِ الحَقِيقَة وجُمَلِ الحُرِية النَقَية، وإن ارتَدُوهُ فَلا تَعتَقد بِأنهُ حُبَاً بِنَقَائِهِ بَل قِنَاعَاً للتَخَفِي والتَورِي مِن أعيُنِ المُقَرَبِينَ لَهُم..

هُم يَعلمُونَ بِأنهُم جُبنَاء، وأنَ نَقَاءِ الأكفَانِ البيضَاءِ تنَتظِرهُم، فَمهمَا تَجمَلوا بِالبيَاضِ في آخِرِ حَلقَة مِن مُسَلسَل الطُغِيان، ومَهمَا تَلوَنتَ مَراسِيم جَنائزِهم بِالبُكَاءِ والوَدَاعِ والبياض فَستنتَظِرهُم حُفرة كَهَذِا القبَر الانفِرادِي الذِي أتَحدثُ إلِيكَ مِنهُ..

طُغَاتنَا مِن سَاسَة ومُلُوكٍ وأُمراءٍ يَصبِغُونَ

شَـيبَهُم بِالـسَوادِ، أرَادُوا أن يَحثُـو الـسَواد على الحَقِيقَـة، أرَادُوا لَنَـا مَذبَحـة سَـودَاء كَقـتلِهم لـشَيبِهم، أقَـامُوا لَنَـا في أحـشَاءِ الـوَطن وَلائِـمٍ سَـودَاء علـى قِيـاسِ كُـلِ مَـن أرَاد أن يَنطُـقَ بِالسَلام والبَيـاضِ والحُرِيـة، يَـا هَـل تُرى لما أنَـا مُعتَقَل هُنَا يا صَدِيقِي ؟

و لِمَـاذَا يَـضَعُونَنِي في حَـبسٍ انفِـرادِي خَـالٍ مِـنَ النُـورِ والبيـاض ؟، لَـيسَ حُبَـاً بِالـسَوادِ، لأنَ السَوادِ والظَلامِ بِالنِسبَة لَهُم طَبع قَـد اعتَادوا عَلِيهِ، فَمن وُلدَ مِن رَحمٍ مُظلَمٍ ونُطفَة مُسودَة بِالجَرائِمِ، فَلا تَعتَقد بِأنهُ سَيكون نَبِياً أو ولِياً أو قِدِيسَاً، فَلُصُوصِ الوَطن العَرَبِي إن أحبَبتَ أن تَعـرِف مِقيـاسِ جُبنِـهِ وقَلقِـهِ وتَخبُطِـهِ النَفـسِي، فَعَلِيـكَ بِـآخرِ مُـؤتَمرٍ للقـوادِ العَـرب

تَحت قُبَة اللصُوصِية أو الجَامِعَة العَرِبية..

أُنظُر إلِيهم .. وقُل: شَاهت الوجُوه ما أقذَرَكُم

الــشَوارِب مَــصبُوغة والــشُعُور مُخَــضَبة بِالسَوادِ والأصبِغة التي تُخفِي شَيبَ خُوفِهِم، كُلُهـم مُجرِمُـون وشَـيبَهم إن ظَهـر على مَلامِـحِ شُعُورِهم لا تَعتقِد بِأنَهُ وَقَاراً، بَل خَوفَاً وجُبنَاً وقَلقَاً، تَحِية طَيبَة إلى القَائِد الذِي لم يُخِفهُ لا شَـيبَاً ولا عَـدواً ولا شَـعبَاً، سَـيدي القِـدوة: عُمَر المُختَار..

و أنتَ تَعلم مَن عُمر المُختَار

أنَا هُنَا، هَل تَسمَعنِي ..!

وَدَاعَاً،

أنَا هُنَا، هَل من أحدٍ يَسمعنِي.. !

330يَوم، و3960 سَاعَة، 3960600 دَقِيقَة،

قَبلَ عِشرِين يَوم في ذَاتِ هَذَا التَوقِيت الضَائِع للموت، بَدأتُ أتَحدثُ مَعَكَ، مُستنجِدَاً بِالطَاقَة الوَهمِية بالانسِجَامِ الرُوحِي بينِي وبينِكَ، فَأنَا مَدِينٌ لَكَ مِن أعمَاقِ قَلبِي لأنكَ كُنتَ تَستَمِعُ لِي مِن غَيرِ أي تَذَمُرٍ أو مَلَلٍ..

هَل تَعَلم بِأنَ الموت هُنَا أرَحم بِكَثِير، ولَو أنَ الفَارِق شَاسِع إلا أنَ الآلِهة مُختَلِفة بينَ آلِهة حَاكِمَة لِهَذَا الوَطن وبين آلِهة رَحيمَة خَلقتنَا وأعطتنَا حُرِية الاختِيار، إلى أنَ تَعَامُل كُلِ آلِهَة

مَع عِبَادِهَا تَختَلف في إنهَاء حَيَاتِنا

الله..

رَبٌ كَرِيم رَحِيم،

فَمهمَا مَا صَنعتَ مِن عَثَراتٍ بِحقِ نَفسِكَ أو بِحَقِ غَيرِكَ، إن أعدتَ الحُقُوقِ إلى أهلِهَا، وأقرَرتَ بينَكَ وبينِ نَفسِكَ ألا تَعُود على مَا صَنعَت، وتُبتَ إلِيهِ وَحَدهُ ليَسَ مَخَافَةً بَل حُبَاً لَهُ وعِشقَاً لِذَاتِهِ النُورانِية..

فَمن تَقربَ إلِيهِ حُبَاً وعِشقَاً فَقد وَصل..

و مَن تَذلَلَ لَهُ خَوفَاً ورُعبَاً ضَاعَ وضَلَ..

فَالخَالق لَيسَ مُخِيفاً إلى هَذِهِ الدَرَجة مِنَ الارتِعَاشَ والهَلع..

صَلّ لَهُ حُبَاً، وصُم لَهُ شَوقَاً، وتَبتَل إلِيهِ

هُيَامَـاً، فَـلا يُوجَـد أطهَـر مِـنَ الحُـبِ والـشَوق والظَنِ الحَسن، ألم يَقُل في الحَدِيث القُدسي:

أنَـا عِندَ ظَن عَبـدِي بِي، وأنَـا مَعَـهُ إذَا ذَكَرَنِي، فَـإن ذَكَرَنِي في نَفـسه ذَكرتُـهُ في نَفـسِي، وإن ذَكَرَنِي في مَـلإٍ ذَكرتُـهُ في مَـلإٍ خَيراً مِنـهُ، وإن تَقَـربَ إليَّ ذِراعَـاً تَقربـتُ إلِيـهِ بَاعَـاً، وإن أتَـانِي يَمشِي أتيتُهُ هَروَلة..

فالقَتَلـة مِـنَ قَلِيلي الفِهـم الـذِين عَرفُـوا الله بِـسِيوفِهم لا بِقُلـوبِهم، هَـؤلاءِ بِالتَحدِيـدِ هُـم أعَدَاءِ الحُبِ والعِشقِ، حُبُهُم في سَفكِ الدِمَاء، وعِـشقُهم بِسَبِي الحَرائِـرِ، وشَـوقُهم بـاعتِلائِهم أسنِمَةِ الأموَالِ المَنهُوبَة بَعدِ كُلِ غَزوَة

و حَتى يُكرِهُونَ البَشر بِالله..

فَبِاسمِهِ يَقتُلون الأبرِياء، ويَستَعبِدُونَ النِساء، ويَغنَمونَ أموَالاً لَيستْ بِأموَالِهم، ويحتَلونَ أرضَاً لَيسَت أرضِهم، ويُسمَى الاحتِلالُ فَتحَاً، والسَبِيُ استعبَادَاً، والقَتلُ جِهَادَاً، والرِقُ شَرفَاً، والغَنِيمَةُ حَلالاً، والحُرِية والكَرامَة حَرَامَاً..

أيُّ قُومٍ هَؤلاءِ ؟

مِن أي طِينَة يَرضَعونَ طُغيانهم! ،

فَنَحنُ في وَطَنِنَا المُحتَل مِن قِبلِ المُتَعلمِنِين والمُتَأسِلمِين مَذبُوحِين بِالسِكِين ذَاتهِ، لا رَحمَة هُنَا، لا بِرَصَاصَةِ الأنظِمَة العَرِبية ولا بِسَيفِ العَاهَاتِ الطَائِفِية، فَلا مَفر، وربُ هَذَا الظَلام الذِي أتحَدثُ مَعَك مِنهُ بِأنكَ مَذبوح مَذبوح..

و على الهَوِيــة كَمَــان، وعلـى الاسِــم، وعلـى الطَائِفة، وعلى الفِكر..

الله،

هُــوَ مَحبَـة، فَمــن رَأى طَرِيــقَ الله بِغَيـرِ عُيــونِ الشَوقِ والعِشقِ فَقد ضَل، وقَسِ على الظَلال المُنتـشِر بين آلافٍ مُؤلَفـة مِنَ الفِـرقِ الطَائِفـة التي عَرفَت الرب عَبرَ الطَرِيق المُؤدِي للدِمَاء..

أنتَظِر إنَنَي أسمَعُ صَوتاً..

يا الله، لَقد فُتِحَ بَاب القَبر الانفِرادِي،

. أنتَ بَهَجت العَظم ؟

أولِ مَرة أحَركُ لِسَانِي مُذ 330 يَوم، ومَع أنَ هَيئَتهُ لم تَتضَح لِي بِسَبَبِ الظَلامِ الدَامِس في المَمَر الذِي يَسيرُ بِهِ الرُعب إلى المُنفَرِدَات، فَقد

أجبتُهُ بِلسَانٍ صَدِءٍ قَارَبَ على انتهَاءِ مُدَتِهِ:

. أي .. أنَا بَهجَت العَظم..

الغَرِيب أنهُ لم يَعصُب عَينَاي، ولَم يَضربَنِي، ولم يُهينَنِي بِكَلمة، فَقط قَال لي:

أمِشِي مَعَي..

سِرتُ مَعَهُ جَنبَاً إلى جَنب، لم أمشِي مُذ 11 شَهر، كُلَ هَذِهِ المُدة كُنتُ صَامِدَاً أمَامَ الموت وأمَام هَذِهِ الجُيوشِ الدَامِسة بِالظَلام، أمشِي عَارِياً وكُل الجَلادِين يَرمُقُونَنِي بِنَظَرَاتِهم، سَادَ الصَمتُ في كُلِ مَكَان، ورَائِحَةِ الطَاغُوت وَصَلت إلى سِدرَةِ المُنتهى، ولا مُخلِص للمَظلُومِين في هَذَا المَدفَن اللا إنسَانِي إلا الله

..

مُقَيد مُنذُ أن ألقُوا بِي في قَعرِ ظُلمِهم، ولكَن لا صَوتَ يَعلوا على صَمتِ العُيون التي أوقَعتنِي بِـالحَيرة، صـوتٌ واحِـدٌ يُواسِـي قَـدَمَاي المُتَخَبِطَتَـان، الـسَلاسِل التِي تَأسِـرُ مِعـصَمَا قَـدمَاي، وفي هَـذَا الـدِوار الـلا شُـعُورِي، أرَى بَصِيصَ النُور مِن بَعِيد، كَمن خَرجَ مِن جَهنَم لِدخُولَ أول مَنَازِلِ الجِنَان، سَألتُهُ وأنَا أُسَاق إلى المَجهُول:

. إلى أين تَأخُذُنِي ؟..

بعدَ بُرهَةٍ مِنَ الَصمت أجَابَ بِهدوءِ البَحرِ قَبل غَضَبِ المَوج:

. هَلق تعرِف..

فُتِح البَاب الرَئِيسِي إلى بَاحَةِ السِجن بَعدمَا

صَعدتُ على سُلمٍ صَعبُ عَليَّ عَدُ دَرجَاتِهِ، هُنَا الشَمس، لم أستَطِع أن أفتَحَ عَينَيّ، ومَا بَعدَ الظَلامِ إلا النُور، ومَا بَعد الضِيق إلا الفَرج، ومَا بَعد الظُلمِ إلا الحُرِية، ولَكِن إلى أين يا تُرى..

أوقَفَنِي أمَامَ سَاحة تُرابِية وقَد اجتَمع حَولِي جَمعٌ غَفِير مِنَ المُسلَحِين بِلبَاسِهم المَدَنِي، قَالَ لِي أحَدُهُم:

. اسمَع يا بَهجَت .. قَرَرت المُخَابَرات العَسكَرِية هَذَا اليَوم التَخلُص مِنَك، بِقَرارٍ غَير قَابل للطَعن بِسَبَبِ مُدَوِنَتَك السِياسِية التي مَست سِياسَةِ الوَطن ورَمزَهَا السَيد الرَئِيس بَشَارِ الأسَد..

حَيثُ سَنَضعُكَ في هَذِهِ الحُفرَة ونَحثو عَلِيكَ

التُراب بَعد تَقِييدَكَ لِتَموت تَحتَ التُراب مِن غَيرِ أن نَستَهلِكَ أيةُ رَصَاصَة .. انتَهى.

لم أخفْ، ولم يُرعِبُنِي حُكمهُم، ولَكن أرَدتُ أن أموتَ بينَ أهلي، أُغَسَل وأُكَفن وأُحمَلُ على الأكتَاف، لأنَني شَهيد القَلم والوَرق والحُرِية والكَرامَة..

أمَامَ حُبِي للهِ وللوَطن..

قَيَدُونِي وأحكَمُوا الوِثَاق،

و رَموا بِي في حُفرةٍ حَنُونَة، إنهَا آخِرُ مَعَاقِل الحَياة،

و بَدَأتُ أُغنِي:

يُمَة مُويلِ..

الهَوى يُمَة مُويلِيا..

ضَربِ الخَنَاجِر ولا حُكمِ النَذِل فِيَا..

و مَشِيت تَحتِ الشِتَا والشِتَا رَوانِي..

و الصَيف لمَا أتَى وَلع مِن نِيرانِي..

بِيضَل عُمرِي انفَدى نِدر للحُرِية..

يُمَة مُويل..

يا لِيل صَاح النَدى يشهَد على جَراحِي..

و انسَل جَيشَ العِدا مِن كُلِ النَواحِي..

و اللِيل شَافِ الرَدى عَم يتعَلم بِيا..

بارودةِ الجَبل أعلى مِن العَالي..

مِفتَاح دَربِ الأمَل والأمَل بِرجَالي..

يا شَعبنَا يَا بَطَل أفدِيك بِعينِيا..

يُمَة مويلِ الهَوى..

ولم أنتَهِ أُغنِيتِي حَتى غَطَانِي التُرابُ، وفَقدتُ آخِرَ نَظرة لِي إلى السَمَاء، وانكفَأ كُلُ شَيءِ..

هُنَا / سُورِيا / دِمشق / فِرع الأمنِ العَسكرِي / طَرِيق

أتمَمتُ رِواية:

كَسْرة ذُل

في بَلَـدِ الحُرِيـة والدِيمُقرَاطِيـة: النَمـسا، في عَاصِمَةِ البِيانو والكَمنجة: فيينا،

في أجمَل مَكَان لَـدي: المَكتبـة العَامـة في الحَي السَابع.

السَاعة: 00: 03، ظُهراً..

مِن تَارِيخ: 13 / 5 / 2017.

فهرس المحتويات

العنوان	الصفحة
الإهداء	5
مُقَدّمة	7
اخرَس..	13
الضَوء..	18
الصَمت،	29
الخَوف،	40
فَياغرا،	51
حَفنة حُزن،	62
حُلُم،	73
نَزَاهَة،	84
تَطَرُف..	95
سِيجَارة،	106
اللَون،	117
وِراثَة،	128
الضَمِير،	138
الصَبر،	149
وَطن مُعطَر،	160
الحُب،	170
نَشوَة،	180

صَوت أعرِفَهُ،.....191
جُبَنَاء،.....202
وَدَاعَاً،.....212
فهرس المحتويات.....224